موسوعة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥)

دلائل نبوته وسيرته وخصائصه وشمائله وهديه وحقوقه وقبس من حديثه

مختصر الشفا

بتعريف حقوق المصطفى

للقاضي عياض

أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض

(ت ٥٤٤هـ)

THE ENCYCLOPEDIA OF MUHAMMAD (PBUH)

موسوعة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

اختصره

أ.د. أحمد بن عثمان المزيد

أستاذ الدراسات الإسلامية - جامعة الملك سعود

يباع بسعر التكلفة

مُختصر الشفا

بتعريف حقوق المصطفى

ح أحمد بن عثمان المزيد، ١٤٣٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
المزيد، أحمد عثمان
موسوعة محمد رسول الله ﷺ الوقفية دلائل نبوته وسيرته وخصائصه وشمائله. / أحمد عثمان المزيد.
الرياض، ١٤٣٨هـ
٦ مج
ردمك: ٨ - ٤٣٩٣ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)
٣ - ٤٣٩٨ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٥)
١ - السيرة النبوية أ - العنوان
ديوي ٢٣٩ ١٤٣٨ / ٦٥٩٣

رقم الإيداع: ١٤٣٨ / ٦٥٩٣
ردمك: ٨ - ٤٣٩٣ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)
٣ - ٤٣٩٨ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٥)

الطَّبعةُ الأولى
(١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م)

المجلدُ الخامس





هاتف: 00966 112313018 جوال: 00966 500996987
تطلب من جميع فروع مكتبة جرير

موسوعة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم
دلائل نبوته وسيرته وخصائصه وشمائله وهديه وحقوقه وقبس من حديثه
٥

مختصر الشفا
بتعريف حقوق المصطفى ﷺ

للقاضي عياض

أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض
(ت ٥٤٤هـ)





اختصره
أ.د. أحمد بن عثمان المزيد
أستاذ الدراسات الإسلامية - جامعة الملك سعود


إهْدَاءُ إلى
مَنْ غَايَتُهُ مُرَافَقَةَ
مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
فِي الجَنَّةِ



خِصَالُ الكَمَالِ وَالجَلالِ فِي مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(إذا كان الواحدُ منا يشرفُ بواحدةٍ أو اثنتينِ من خصالِ الكمالِ والجلالِ فما ظنكَ بعظيمِ قدرِ محمد رسول الله ﷺ مَن اجتمعَت فيه كلُّ هذه الخصالِ: مِن فضيلةِ النبوةِ والرسالةِ، والخلَّةِ، والمحبةِ، والاصطفاءِ، والإسراءِ، والقربِ، والشفاعةِ، والوسيلةِ والفضيلةِ، والمقامِ المحمودِ، والبراقِ والمعراجِ، والبعثِ إلى الأحمرِ والأسودِ، والصلاةِ بالأنبياءِ، والشهادةِ بينَ الأنبياءِ والأممِ، وسيادةِ ولدِ آدمَ، ولواءِ الحمدِ، ورحمة للعالمين، وإعطاءِ الرضى والسؤل، والكوثرِ، وإتمامِ النعمةِ، والعفوِ عما تقدَّمَ وما تأخَّرَ، وشرحِ الصدرِ، ووضعِ الإصرِ، ورفعِ الذكرِ، وعزَّةِ النصرِ، والتأييدِ بالملائكةِ، وإيتاءِ الكتابِ والحكمةِ والسبعِ المثاني والقرآنِ العظيم، وصلاةِ الله تعالى والملائكةِ، والقَسَمِ باسمِه، وإجابةِ دعوتِه، وتكليمِ الجماداتِ والعجمِ، ونبعِ الماءِ مِن بينِ أصابعِه، وانشقاقِ القمرِ، والنصرِ بالرعبِ، وظلِّ الغمامِ، وتسبيحِ الحصى، والعصمةِ من الناسِ، إلى ما لا يحويه محتفلٌ، ولا يحيطُ بعلمِه إلا مانحُه ذلك ومُفضِّلُه به، لا إله غيرُه).

[مختصر الشفا للقاضي عياض بهذه الموسوعة، المجلد الخامس، (ص51- 52) باختصار]



بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بموسوعة محمد رسول الله ﷺ

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا وحبيبِنا محمدٍ رسول الله ﷺ، وعلى آلِه وصحبِه، ومَن اقتفَى أثرَه وعملَ بهديِه واستنَّ بسنتِه، **أمَّا بعدُ:**

فتمتازُ هذه الموسوعةُ -التي استغرَقَ العملُ فيها نحوًا مِن عامينِ- بجمعِها لأهمِّ علومِ السيرةِ النبويةِ الشريفةِ وفنونها في وعاءٍ واحدٍ، وانتقاءِ أفضلِ ما كتبَه أئمةُ سلفِنا الصالحِ وعلماؤهم في كل فنٍّ مِن فنونِها، مما لقيَ شهرةً وقبولًا لدى الأمةِ، وقد قمتُ باختصارِ هذه الكتبِ وتهذيبِها، نسأل الله الإخلاص والقبول.

وكان منهجي في اختصارِ كتبِ هذه الموسوعةِ أن تكونَ على أفضلِ الطبعاتِ المعتمدةِ لكلِّ كتابٍ، مع حذفِ الضعيفِ وما دونَه، والاستطراداتِ، وما أغنَى عنه غيرُه، أو كان مكرَّرًا سبقَ ذكرُه، وكذلك أسانيدُ الأحاديثِ إلا الصحابيَّ أو مَن دونَه مما يحتاجُ الكلامُ إليه، وقد حافظتُ على لفظِ المصنفِ وترتيبِه، فإن زدتُ في عنواناته شيئًا وضعتُه بين معقوفَينِ، وكذا ما كان مِن طبعةٍ أخرى غيرِ التي اعتمدتُها.

وكان هدفي مِن هذا المنهجِ تقريبَ سيرة النبي ﷺ وتيسيرَها؛ لنتعلَّمَ جميعًا علومَها وفنونَها من كتبِ علماءِ سلفِنا الصالحِ الأصيلةِ، لنحقِّقَ الاقتداءَ به ﷺ في عقيدتِه وعباداتِه ومعاملاتِه وأخلاقِه؛ فنسعدُ في الدنيا ونفوزُ بالآخرةِ.

وقد اقتصرتُ في الحاشيةِ على التخريجِ الموجزِ للأحاديثِ النبويةِ الشريفةِ والآثارِ، وبيانِ غريبِ ألفاظها.

(*) هذا تعريف موجز بالموسوعة، وقد تقدَّم التعريف بها مفصَّلًا في صدر المجلد الأول.

وقد جاءَ هذا الإصدارُ الأوَّلُ مِن «**موسوعة محمد رسول الله ﷺ**» جامعًا لستةِ علومٍ مِن علومِ السيرةِ النبويةِ الشريفةِ وفنونِها في ستةِ مجلداتٍ، عبرَ اختصارِ ثمانيةِ كتبٍ، وهي على النحو التالي:

المجلد الأول: ١- في علم الدلائل [كتاب «دلائل النبوة» لأبي نعيم (ت٤٣٠هـ)]

المجلد الثاني: ٢- في علم السيرة النبوية [كتاب «السيرة النبوية» لابن هشام (ت٢١٨هـ)]

المجلد الثالث: ٣- في علم الخصائص [كتاب «غاية السُّول في خصائص الرسول» لابن الملقن(ت٤٠٨هـ)]

٤- في علم الشمائل، وفيه ثلاثة كتب، هي:

- [كتاب «شمائل النبي ﷺ» للترمذي (ت٢٧٩هـ)]

- [كتاب «محمد رسول الله ﷺ والحقوق والقيم والأخلاق وعلاج مشكلات العالم المعاصر»، لـ أ.د أحمد بن عثمان المزيد]

المجلد الرابع: - [كتاب «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)]

المجلد الخامس: ٥- في علم حقوق النبي ﷺ: [كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض (ت٥٤٤هـ)]

المجلد السادس: ٦- في علم الحديث النبوي الشريف: [كتاب «رياض الصالحين» للنووي (ت٦٧٦هـ)]

في علم حقوق النبي ﷺ

أهميته:

إن حقوقَ النبيِّ ﷺ على أمتِه لهي في جملتِها الأصلُ الثاني من أصلَي الدين، كما يدل عليه قولُنا: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله**»؛ ولذا ينبغي على المسلمِ أن يحيطَ بتلك الحقوقِ معرفةً، ويلتزم بها اعتقادًا وقولًا وعملاً، فذلك عقدٌ من عقودِ الإيمانِ.

وهذه الحقوقُ منها ما يتصلُ بجانبِ الرسالةِ التي بُعِثَ بها ﷺ، ومنها ما يتعلَّقُ بشخصِ رسول الله ﷺ تفضيلًا وتكريمًا مِن الله له.

وحقوقُ النبيِّ ﷺ على أمتِه كثيرةٌ، فمنها: الإيمانُ الصادقُ به ﷺ قولًا وفعلًا، وتصديقُه في كلِّ ما جاءَ به ﷺ، ووجوبُ طاعتِه، والحذرُ مِن مخالفتِه ﷺ، ووجوبُ التحاكمِ إليه والرِّضَى بحكمِه، وإنزالُه منزلتَه ﷺ بلا غلوٍ ولا تقصيرٍ، واتخاذُه قدوةً وأُسْوةً في جميعِ الأمورِ، ومحبتُه أكثرَ مِن النفسِ والأهلِ والمالِ والولدِ والناسِ أجمعين، وتوقيرُه، ونصرتُه، والذبُّ عن شريعتِه وسنتِه، والصلاةُ عليه... إلخ.

ترجمة القاضي عياض (ت ٥٤٠هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ

اسمه ونسبه:

هو أبو الفضلِ عِياضُ بنُ عمرون بنِ موسى بنِ عِياض، اليَحْصبِيُّ، سَبْتِيُّ الدارِ والميلادِ، أندلسيُّ الأصلِ.

تاريخ مولده:

وُلِدَ القاضي عياضُ في منتصف شهر شعبان عام (٤٧٦هـ) في سَبْتَة[١].

نشأته وأخلاقه:

قال عنه ابنُه محمد: «نشَأَ أبي على عفةٍ وصيانةٍ، مرضيَّ الحالِ، محمود الأقوالِ والأفعالِ، موصوفًا بالنُّبْلِ والفهم والحذقِ، طالبًا للعلم حريصًا عليه، مجتهدًا فيه، معظَّمًا عندَ الأشياخ مِن أهلِ العلم، كثيرَ المجالسةِ لهم والاختلافِ إليهم، إلى أن برَعَ أهلَ زمانِه وسادَ جملةَ أقرانِه؛ فكان مِن حفَّاظِ كتاب الله تعالى، مع القراءةِ الحسنةِ والنغمةِ العذبةِ، والصوتِ الجهيرِ، والحظِّ الوافرِ من تفسيرِه وجميع علومِه، وكان مِن أئمَّةِ الحديثِ في وقتِه، أصوليًّا متكلمًا فقيهًا، حافظًا للمسائلِ عاقدًا للشروطِ، بصيرًا بالأحكام، نحويًّا ريَّانًا مِن الأدبِ، شاعرًا مجيدًا، كاتبًا خطيبًا، حافظًا للغةِ والأخبارِ والتواريخ، حسنَ المجلسِ، نبيلَ النادرةِ، حلوَ الدعابةِ، صبورًا حليمًا، جميلَ العشرةِ، جوادًا سمحًا، كثيرَ الصداقةِ، دؤوبًا على العملِ، صلبًا في الحقِّ»[٢].

---

(١) الديباج المذهب لابن فرحون (٢/ ٤٦-٥١ باختصار).

(٢) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض لأحمد بن محمد المقري (٣/ ٨).

شيوخه وطلبه للعلم ومناصبه:

قال ابنه عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَخَذَ عن أشياخ بلدتِه سَبْتَة كالقاضي أبي عبد الله بن عيسى والخطيبِ أبي القاسم والفقيهِ أبي إسحاق بن الفاسي وغيرهم»[(١)].

رحَلَ إلى الأندلسِ سنة (٥٠٧هـ) طالبًا للعلم، وبعدَ عودِه مِن الأندلس أجلسَه أهلُ سبتةَ للمناظرةِ عليه في المدونةِ وهو ابن ثلاثين سنة أو ينيف عنها، ثم أُجلس للشورى، ثم وَلي قضاءَ بلدِه مدةً طويلة حمدت سيرتُه فيها، ثم نقلَ إلى قضاءِ غرناطةَ في سنة (٥٣١هـ) ولم يطل أمرُه بها، ثم وَلِي قضاءَ سَبْتَة ثانيًا[(٢)].

محنته:

لما ظهَرَ أمرُ الموحدين بادَرَ إلى المسابقةِ بالدخولِ في طاعتِهم ورحَلَ إلى لقاء أميرِهم بمدينة سلا، فأجزَلَ صلتَه وأوجبَ برَّه، إلى أن اضطربَتْ أمورُ الموحدين عام (٥٤٣هـ) فتلاشت حالُه ولحق بمراكش مشردًا به عن وطنِه، فكانت بها وفاتُه[(٣)].

تصانيفه:

للقاضي عياض تصانيف مفيدة، منها: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وإكمال المعلم في شرح مسلم، وتقريب المسالك في ذكر فقهاء مذهب مالك، وجامع التاريخ، ومشارق الأنوار في اقتفاء صحيح الآثار وغيرها.

وفاته: تُوفِّي القاضي عياض بمراكش في شهر جمادى الأخيرة، وقيل: في شهر رمضان سنة (٥٤٠هـ).

---

(١) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض لأحمد بن محمد المقري (٣/ ٨).
(٢) ينظر: السابق.
(٣) ينظر: الديباج المذهب لابن فرحون(٢/ ٤٨).

التعريف بكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (ت ٥٤٤هـ)

أهميته:

يعدُّ كتابُ الشفا بتعريفِ حقوقِ المصطفى للقاضي عياضٍ مِن أوائلِ المصنفات التي تناولت خصائصَ النبيِّ ﷺ وأفردتها بمصنفٍ، وقد تميز بحسنِ ترتيبِه وتقسيمِه وجمال عرضِه، وبهاءِ لغته وفصاحتها.

«وكتابُ الشفا أجمعُ وأجلُّ مصنفٍ يبحثُ في شرفِ المصطفى ﷺ وقدرِه العظيمِ ومنصبِه الجليلِ، يتناولُ ذلك من جوانبَ فقهيةٍ أصوليةٍ عقديةٍ، بأسلوبٍ بليغ، وبيانٍ بديع، وحججٍ قويةٍ، وبراهينَ ساطعةٍ، مؤيدةً بالدليلِ مِن قرآنٍ وسنةٍ وأقوالِ السلفِ والأئمةِ.

والغايةُ مِن هذا الكتابِ ليس إقناعَ جاحدٍ، ولا قهرَ معاندٍ، وإنما ليكونَ منهاةً لأعمالِ المسلمين، وزيادةً في إيمانِ المؤمنين، ومحبةً في سيدِ المرسلين، وقد أبان المصنفُ عن هذه الغايةِ في أولِ البابِ الرابعِ مِن القسمِ الأولِ»[(١)].

ترتيبه ومنهجه:

يقولُ القاضي عياض في مقدمةِ كتابِهِ، معرِّفًا بترتيبِه ومنهجِه: «حصرتُ الكلامَ فيه في أربعة أقسامٍ:

القسمُ الأولُ: في تعظيمِ العليِّ الأعلى لقدرِ هذا النبيِّ ﷺ قولًا وفعلًا.

القسمُ الثاني: فيما يجبُ على الأنامِ مِن حقوقِه ﷺ.

---

(١) مقدمة الشفا للقاضي عياض، تحقيق عبده كوشك (ص٨ بتصرف يسير).

القسمُ الثالثُ: فيما يستحيلُ في حقِّه ﷺ، وما يجوزُ عليه، وما يمتنعُ ويصحُّ مِن الأمورِ البشريةِ أن يُضافَ إليه.

وهذا القسمُ -أكرمَكَ الله تعالى- هو سرُّ الكتابِ، ولبابُ ثمرةِ هذه الأبوابِ، وما قبلَه له كالقواعدِ والتمهيداتِ والدلائلِ على ما نوردُه فيه مِن النكتِ البيناتِ، وهو الحاكمُ على ما بعدَه، والمنجزُ من غرضِ هذا التأليفِ وعدَه.

القسمُ الرابعُ: في تصرُّفِ وجوهِ الأحكامِ على مَن تنقَّصَه أو سبَّه ﷺ»[(١)].

اهتمام العلماء به وثناؤهم عليه:

وقد نال كتابُ الشفا للقاضي عياض حظًّا وافرًا مِن اهتمامِ العلماءِ، وتنوَّعَتْ طرقُ خدمتِهم لهذا الكتابِ مِن بين شرحٍ واختصارٍ إلى تخريجٍ وترجمةٍ وتهذيبٍ:

فمِن شروحِه المطبوعة:

١- شرح الملا علي القاري (ت١٠١٤هـ).

٢- نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض، لشهاب الدين الخفاجي (ت١٠٦٩هـ)، وهو شرح موسع في مجلدات.

٣- مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء لأحمد بن محمد الشمني (ت٨٧٣هـ).

ومن مختصراته:

١ـ مختصر الإسنوي (ت٧٦٣هـ).

٢ـ مختصر لمحمد بن محمود، انتهى منه سنة ٩٦٠ هـ.

---

(١) (ص٢٠).

ومن تخريجاته:

- مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا لجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ).

وقد حاز كتابُ القاضي عياض مِن ثناءِ العلماءِ على قصبِ السبقِ:

قال ابنُ فرحون (ت٧٩٩هـ): «أبدَعَ فيه كلَّ الإبداع، وسلَّمَ له أكفاؤُه كفايتَه فيه، ولم ينازِعْه أحدٌ من الانفرادِ به، ولا أنكروا مزيةَ السبقِ إليه، بل تشوَّفوا للوقوفِ عليه، وأنصفُوا في الاستفادةِ منه، وحملَه الناسُ عنه، وطارَتْ نُسَخُه شرقًا وغربًا»[(١)].

وقال الملا علي القاري (ت١٠١٤هـ): «أجمعُ ما صُنِّفَ في بابِه، مجملًا في الاستيفاءِ لعدمِ إمكانِ الوصولِ إلى انتهاءِ الاستقصاءِ»[(٢)].

وقال أحمد بن محمد المقري (ت١٠٤١هـ): «بلَغَ فيه الغايةَ القصوى، وكان فيه لضروبِ الإحسانِ مرتشفًا، وبذَّ فيه المؤلفين وأربَى، وحاز قصبَ السبقِ به دونَهم، وطار صيتُه شرقًا وغربًا»[(٣)].

الطبعة المعتمدة في هذا المختصر:

اعتمدتُ في هذا المختصرِ على طبعة وحدة البحوث والدراسات بدبي، تحقيق عبده كوشك، الطبعة الأولى، سنة ١٤٣٤هـ، وقد اعتمد محققه على طبعة البجاوي ومقابلتها بنسخة من الكتاب محفوظة بالمكتبة الظاهرية.

---

(١) الديباج المذهب لابن فرحون (٢/ ٤٩)

(٢) شرح الشفا للملا علي القاري(١/ ٩).

(٣) أزهار الرياض في أخبار عياض لأحمد بن محمد المقري (٤/ ٢٧١).

5 موســـــوعة محمـــــــد رســـــول الله ﷺ

دلائل نبوته وسيرته وخصائصه وشمائله وهديه وحقوقه وقبس من حديثه

مختصر الشفا بتعريف حقوق المصطفى

للقاضي عياض أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض (ت٥٤٤هـ)

اختصره

أ.د. أحمد بن عثمان المزيد

أستاذ الدراسات الإسلامية – جامعة الملك سعود

[مقدمة المصنف]

بسمِ الله الرحمنِ الرحيم، وبه أتوكلُ

قال الفقيهُ القاضي الإمامُ الحافظ أبو الفضلِ عياضُ بن موسى بن عياضٍ اليَحْصُبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه:

الحمد لله المنفرِدِ باسمه الأَسمى، المختصِّ بالعزِّ الأَحمى، الذي ليس دونَه مُنتهى ولا وراءه مَرمى، وَسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا، وأسبغَ على أوليائه نِعمًا عُمًّا، وبعثَ فيهم رسولًا من أنفُسِهم، أنفَسَهم عربًا وعجمًا، وأزكاهُم مَحتِدًا ومَنمَى، وأرجَحَهم عقلًا وحلمًا، وأوفَرَهم علمًا وفهمًا، وأقواهُم يقينًا وعَزمًا، وأشدَّهُم بهم رأفةً ورُحمًا، صلى الله عليه وسلم صلاةً تَنمو وتُنمى، وعلى آله وسلم تسليمًا.

أما بعدُ، فإنك كَرَّرتَ عليَّ السؤالَ في مجموعٍ يتضمن التعريفَ بقدرِ المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما يجبُ له من توقيرٍ وإكرامٍ، وما حُكمُ من لم يوفِّ واجبَ عظيمِ ذلك القدرِ، أو قصرَ في حقِّ منصبِه الجليلِ قُلامةَ ظُفرٍ، وأن أجمعَ لك ما لأسلافِنا وأئمتِنا في ذلك من مقالٍ، وأبينَه بتنزيلِ صورٍ وأمثالٍ.

فاعلم رَحِمَك الله أنك حَمَّلتَني من ذلك أَمرًا إِمْرًا[1]، وأرهَقتَني فيما نَدَبتني إليه عُسرًا، وأرْقَيتَني بما كلَّفتني مُرتقًى صعبًا، ملأَ قلبي رُعبًا، فإن الكلامَ في ذلك يَستدعي تقديرَ أصولٍ، وتَحريرَ فصولٍ، والكشفَ عن غوامضَ ودقائقَ من علم الحقائقِ، مما يَجبُ للنبيِّ ﷺ ويُضافُ إليه، أو يَمتنعُ أو يجوزُ عليه، ومعرفةُ النبيِّ والرسولِ، والرسالةِ والنبوة، والمحبةِ والخُلةِ، وخصائصِ هذه الدرجةِ العليَّةِ.

---

(١) (إِمْرًا): شديدًا.

فبادرتُ إلى نكتٍ مُسفرةٍ عن وجهِ الغرضِ، مؤديا من ذلك الحقَّ المفترَض، اختلستُها على استعجالٍ، لما المرءُ بصددِه من شغلِ البدنِ والبالِ، بما طُوِّقَه الإنسانُ من مقاليدِ المحنةِ التي ابتُلِيَ بها فكادَت تشغلُ عن كل فرضٍ ونفلٍ، وتردُّ بعد حصنِ التقويمِ إلى أسفلِ سُفلٍ، ولو أرادَ الله بالإنسانِ خيرًا لجعلَ شغلَهُ وهمَّهُ كلَّهُ فيما يُحمدُ غدًا ولا يُذمُّ محله، فليس ثَمَّ سوى نضرةِ النعيمِ أو عذابِ الجحيمِ، ولكان عليه بخويصتِه، واستنقاذِ مُهجتِه، وعملٍ صالحٍ يستزيدُه، وعلمٍ نافعٍ يفيدُه أو يستفيدُه. جبرَ الله تعالى صدعَ قلوبِنا، وغفرَ عظيمَ ذنوبِنا، وجعلَ جميع استعدادِنا لمعادِنا، وتوفُّرِ دواعينا فيما يُنجينا ويُقربنا إليه تعالى زُلفى، ويُحظينا بمنِّه وكرمِه ورحمته.

ولما نويتُ تقريبَه، ودرَّجت[١] تبويبَه، ومهدتُ تأصيله وخلَّصتُ تفصيلَه، وانتحيتُ حصرَه وتحصيلَه- ترجمتُه بـ«الشِّفا بتَعريفِ حُقوقِ المصُطَفى».

وحصرتُ الكلامَ فيه في أقسامٍ أربعةٍ:

القسمُ الأولُ: في تعظيمِ العليِّ الأعلى لقدرِ هذا النبيِّ ﷺ قولًا وفعلًا.

القسمُ الثاني: فيما يجبُ على الأنامِ مِن حقوقِه ﷺ.

القسمُ الثالثُ: فيما يستحيلُ في حقِّه ﷺ، وما يجوزُ عليه، وما يمتنعُ ويصحُّ مِن الأمورِ البشريةِ أن يُضافَ إليه.

وهذا القسمُ -أكرمَك الله تعالى- هو سرُّ الكتابِ، ولبابُ ثمرةِ هذه الأبوابِ، وما قبلَه له كالقواعدِ والتمهيداتِ والدلائلِ على ما نوردُه فيه مِن النكتِ البيناتِ، وهو الحاكمُ على ما بعدَه، والمنجزُ من غرضِ هذا التأليفِ وعدَه.

القسمُ الرابعُ: في تصرُّفِ وجوهِ الأحكامِ على مَن تنقَّصَه أو سبَّه ﷺ.

---

(١) (درَّجت)أي: أدناه منه على التدريج.

القسمُ الأولُ

في تعظيمِ العلي الأعلى لقدرِ النبيِّ المصطفى ﷺ قولًا وفعلًا

لا خفاءَ على من مارسَ شيئًا من العلمِ، أو خُصَّ بأدنى لَمحةٍ من فهمٍ بتعظيمِ الله تعالى قدرَ نبينا ﷺ وخصوصِه إياه بفضائلَ ومحاسنَ ومناقبَ لا تنضبطُ لزِمامٍ، وتنويهِه من عظيمِ قدره بما تكِلُّ عنه الألسنةُ والأقلامُ:

فمنها: ما صرَّحَ به تعالى في كتابِه، ونبَّه به على جليلِ نِصَابِه[(١)]، وأثنى به عليه من أخلاقِه وآدابِه، وحضَّ العبادَ على التزامِه وتقلُّدِ إيجابِه. فكان جل جلاله هو الذي تفضلَ وأولى، ثم طهَّرَ وزكَّى، ثم مدحَ بذلك وأثنَى، ثم أثابَ عليه الجزاءَ الأوفى، فله الفضلُ بدءًا وعودًا، وله الحمدُ أُولى وأُخرى.

ومنها: ما أبرزه للعِيانِ من خلقِه على أتمِّ وجوهِ الكمالِ والجلالِ، وتخصيصِه بالمحاسِن الجميلةِ، والأخلاقِ الحميدةِ، والمذاهبِ الكريمةِ، والفضائلِ العديدةِ، وتأييده بالمعجزاتِ الباهرة، والبراهين الواضحةِ، والكرامات البينة التي شاهدَها من عاصرَه، ورآها من أدركَه، وعلِمَها علمَ يقينٍ من جاء بعده، حتى انتهى علمُ حقيقةِ ذلك إلينا، وفاضَت أنوارُه علينا ﷺ كثيرًا.

عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ أُتِيَ بالبُرَاقِ ليلة أسريَ به ملجمًا مسرجًا، فاستصعَبَ عليه، فقال له جبريل: أبمحمدٍ تفعلُ هذا؟ فما ركبك أحدٌ أكرمُ على الله تعالى منه! قال: فارفَضَّ[(٢)] عرقًا[(٣)].

---

(١) (نِصابه): منصبه.

(٢) (ارْفَضَّ): جرى وسال.

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٣١).

الباب الأول: في ثناءِ الله تعالى عليه وإظهارِه عظيمَ قدرِه لديه

اعلم أن في كتابِ الله العزيزِ آياتٍ كثيرةً مفصحةً بجميلِ ذِكرِ المصطفى ﷺ وعَدِّ محاسنِه، وتعظيمِ أمره، وتنويهِ قدره، اعتمَدنا منها على ما ظهرَ معناه وبانَ فحواه، وجمعنا ذلك في فصولٍ:

١- فصل فيما جاءَ من ذلك مجيءَ المدحِ والثناءِ وتَعدادِ المحاسنِ

كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨].

قال السمرقنديُّ: وقرأ بعضُهم: (مِنْ أَنفَسِكُمْ) بفتح الفاءِ، وقراءةُ الجمهورِ بالضم[(١)].

أعلَمَ الله تعالى المؤمنين أو العربَ أو أهلَ مكةَ أو جميعَ الناس -على اختلافِ المفسرين: مَن المواجَه بهذا الخطابِ؟- أنه بعثَ فيهم رسولًا من أنفسُهم يعرفونَه ويتحقَّقون مكانه، ويعلمون صِدقه وأمانَته، فلا يتهِمونه بالكذبِ وتركِ النصيحة لهم؛ لكونه منهُم، وأنه لم يكن في العربِ قبيلةٌ إلا ولها على رسولِ الله عليه وسلم ولادةٌ أو قرابةٌ، وهو عند ابن عباسٍ وغيره معنى قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣][(٢)]. وكونه من أشرفِهم وأرفعِهم وأفضلِهم على قراءة الفتحِ، وهذه نهايةُ المدحِ.

ثم وصفهُ بعدُ بأوصافٍ حميدةٍ، وأثنى عليه بمحامدَ كثيرةٍ من حرصِه على هدايتِهم ورشدِهم وإسلامِهم، وشدَّةِ ما يُعنِّتُهم ويضرُّ بهم في دنياهم وأخراهم، وعزتِه عليه، ورأفتِه ورحمتِه بمؤمنيهم.

قيل: أعطاه اسمَينِ من أسمائِه: رؤوفٌ رحيمٌ.

---

(١) بحر العلوم للسمرقندي ٢/ ١٠١.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ٢٠/ ٤٩٥، والنسائي في الكبرى ١٠/ ٢٤٩، والحاكم ٢/ ٤٨٢.

ومثله في الآية الأخرى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٦٤].

وفي الآية الأخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة:٢].

وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة:١٥١].

وقد سماه الله تعالى في القرآنِ: نورًا وسراجًا منيرًا فقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة:١٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشَّرح:١-٨].

هذا تقريرٌ من الله جلَّ اسمُه لنبيِّه ﷺ على عظيمِ نعمِه لديه وشريفِ منزلتِه عنده وكرامتِه عليه بأن شرحَ قلبَه للإيمان والهدايةِ ووسعه لوعي العلمِ وحملِ الحكمةِ، ورَفعَ عنه ثقلَ أمورِ الجاهليةِ عليه، وبغَّضَهُ لسيرِها وما كانت عليه

بظهورِ دينه على الدين كلِّه، وحطَّ عنه عُهدةَ أعباءِ الرسالةِ والنبوةِ لتبليغِه للناس ما نُزِّلَ إليهم، وتَنويهه بعظيمِ مكانه وجليل رُتبتِه ورَفعِه ذِكرَه وقِرانِه مع اسمِه اسمَه.

ومِن ذِكرِه معه تعالى أن قَرنَ طاعتَه بطاعتِه واسمَه باسمِه فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران:١٣٢]، و﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦]، فجَمَعَ بينهما بواوِ العطفِ المشَرِّكةِ، ولا يجوزُ جمعُ هذا الكلامِ في غيرِ حقِّه ﷺ؛ عن حذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا يَقولَنَّ أحدُكم: ما شاءَ الله وشاءَ فلان، ولكن ما شاءَ الله ثمَّ شاءَ فلان**»[(١)].

قال الخطابيُّ: أرشدَهم ﷺ إلى الأدبِ في تقديمِ مشيئة الله تعالى على مشيئةِ من سواه، واختارَها بـ«**ثُمَّ**» التي هي للنسقِ والتراخي بخلافِ الواو التي هي للاشتراك[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، وابن ماجه (٢١١٨).

(٢) معالم السنن للخطابي ٤/ ١٣١-١٣٢.

٢- فصل في وصفِه له تعالى بالشهادةِ وما يَتعلقُ بها من الثناءِ والكرامةِ

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦]، جمعَ الله تعالى في هذه الآيةِ ضُروبًا من رتبِ الأُثْرةِ، وجملةَ أوصافٍ من المِدْحةِ[(١)]، فجعله شاهدًا على أمته لنفسِه بإبلاغِهم الرسالةَ، وهي من خصائِصه ﷺ، ومبشرًا لأهلِ طاعتِه، ونذيرًا لأهل معصيتِه، وداعيًا إلى توحيدِه وعبادتِه، وسراجًا منيرًا يُهتدى به للحقِّ.

عن عطاءِ بن يسارٍ، قال: لقيتُ عبدَ الله بنَ عمرِو بنِ العاصِ قلت: أخبرني عن صفةِ رسولِ الله ﷺ، قال: أجل والله، إنه لموصوفٌ في التوراةِ ببعضِ صفتِه في القرآنِ: يا أيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحِرزًا للأميين، أنت عبدي ورَسولي، سمَّيتُك المتوكِّلَ، ليس بفَظٍّ ولا غليظٍ، ولا سَخابٍ في الأسواقِ، ولا يَدفعُ بالسيئةِ السيئةَ، ولكن يعفو ويغفرُ، ولن يقبِضهُ الله حتى يُقيمَ به الملةَ العَوجاءَ بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويَفتحَ به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غُلفًا[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: ١٤٣] قال أبو الحسنِ القابِسي: أبان الله تعالى فضلَ نبينا ﷺ وفضلَ أمتِه بهذه الآيةِ، وفي قوله في الآيةِ الأخرى: ﴿وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ

---

(١) (المِدْحة): الثناء والذكر الحسن.

(٢) أخرجه البخاري (٢١٢٥).

ﭐلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨] وكذلك قولِه تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿وَسَطًا ﴾ أي: عَدلًا خيارًا، ومعنى هذه الآية: وكما هدَيناكم فكذلك خصَّصناكُم وفضَّلناكم بأنْ جعلناكم أمةً خيارا عدولا لتَشهدوا للأنبياءِ عليهم السلامُ على أممِهم ويشهد لكم الرسولُ بالصدق.

٣- فصل فيما وَردَ في خطابِه إياه موردَ الملاطفةِ والمبَرَّةِ

من ذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة:٤٣].

قال السمرقنديُّ: ولو بَدأ النبيَّ ﷺ بقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ لخيفَ عليه أن ينشقَّ قلبُه من هيبةِ هذا الكلامِ، لكن الله تعالى برحمتِه أخبره بالعفو حتى سَكَنَ قلبُه، ثم قال له: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ بالتخلفِ حتى يتبين لك الصادقُ في عُذرِه من الكاذبِ[1]؟

وفي هذا من عظيمِ منزلتِه عند الله ما لا يَخفى على ذي لبٍّ، ومن إكرامِه إياه وبرِّه به ما ينقطعُ -دون معرفةِ غايتِه- نياطُ القلبِ.

قال نِفطَويه: ذهبَ ناسٌ إلى أن النبيَّ ﷺ مُعاتَبٌ بهذه الآية، وحاشاهُ من ذلك، بل كان مُخيَّرًا، فلما أَذِنَ لهم أعلمهُ الله تعالى أنه لو لم يَأذَن لهم لقَعدوا لنِفاقِهم، وأنه لا حَرجَ عليه في الإذنِ لهم.

يجبُ على المسلمِ المجاهدِ نفسَه الرائِض بزمامِ الشريعةِ خُلقَه أن يتأدَّبَ بأدبِ القرآنِ في قولِه وفعلِه ومعاطاتِه ومحاوراتِه، فهو عنصرُ[2] المعارفِ الحقيقيةِ وروضةُ الآدابِ الدينيةِ والدنيويةِ.

وليتأمل هذه الملاطفةَ العجيبةَ في السؤالِ من ربِّ الأرباب المنعِمِ على الكلِّ، المستغني عن الجميعِ ويَستثيرُ ما فيها من الفوائدِ، وكيف ابتدأ بالإكرامِ قبل العَتْبِ، وآنسَ بالعفو قبل ذكر الذنبِ إن كان ثَمَّ ذنبٌ.

---

(١) بحر العلوم للسمرقندي ٢/ ٦٢.

(٢) (العُنْصُر): الأصل.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤] قال بعضُ المتكلمين: عاتب الله الأنبياءَ عليهم السلام بعد الزَّلات، وعاتب نبيَّنا عليه السلام قبلَ وقوعِه، ليكونَ بذلك أشد انتهاءً ومحافظة لشرائطِ المحبةِ، وهذه غايةُ العنايةِ، ثم انظر كيف بدأ بثباتِه وسلامِته قبل ذِكر ما عَتبه عليه وخيفَ أن يركنَ إليه، ففي أثناءِ عتبه براءتُه، وفي طيِّ تخويفه تأمينُه وكرامتُه.

ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام:٣٣].

ففي هذه الآيةِ منزَعٌ لطيفُ المأخذِ من تسليتِه تعالى له ﷺ، وإلطافِه في القولِ: بأن قرر عندَه أنه صادقٌ عندهم، وأنهم غيرُ مكذِّبين له، معترِفون بصدقِه قولًا واعتقادًا.

وقد كانوا يُسمونه قبل النبوةِ الأمينَ، فدفعَ بهذا التقريرِ ارتماضَ نفسِه بسمةِ الكذبِ، ثم جعلَ الذمَّ لهم بتسميتِهم جاحدين ظالمين فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فحاشاه من الوصمِ، وطَوَّقَهم -بالمعاندةِ بتكذيبِ الآيات- حقيقة الظلمِ، إذ الجحدُ إنما يكون ممن عَلِمَ الشيءَ ثم أنكرهُ كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

ثم عزَّاه وآنسهُ بما ذكرهُ عمن قبلهُ ووعدَه النصرَ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام:٣٤].

ومما ذُكر من خصائصِه وبر الله تعالى به أنَّ الله تعالى خاطب جميعَ الأنبياءِ بأسمائِهم، فقال تعالى: يا آدمُ، يا نوحُ، يا إبراهيمُ، يا موسى، يا داودُ، يا عيسى، يا زكريا، يا يحيى، ولم يخاطَب هو إلَّا: يا أيها الرسولُ، يا أيها النبيُّ، يا أيها المزملُ، يا أيها المدثرُ.

٤- فصل في قَسَمِه تعالى بعظيمِ قدرِه

قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحِجر:٧٢].

اتفق أهلُ التفسيرِ في هذا أنه قسمٌ من الله جل جلالُه بمدةِ حياةِ محمدٍ ﷺ.

وأصلُه ضمُّ العين من العُمرِ، ولكنها فُتِحت لكثرةِ الاستعمالِ، ومعناه: وبقائِك يا محمدُ. وقيل: وعيشِك. وقيل: وحياتِك.

وهذه نهايةُ التعظيمِ وغايةُ البرِّ والتشريفِ.

قال ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما خلقَ الله تعالى وما ذَرأ وما بَرأ نفسًا أكرمَ عليه من محمدٍ ﷺ، وما سمعتُ الله تعالى أقسَمَ بحياةِ أحدٍ غيرِه(١).

---

(١) أخرجه الحارث ابن أبي أسامة في مسنده كما في بغية الباحث ٢/ ٨٧١-٨٧٢ (٩٣٤)، والطبري في التفسير ١٤/ ٩١، والدينوري في المجالسة (٢٥٢٧).

٥- فصل في قَسمِه تعالى جده له ليحقق مكانتَه عنده

قال جل اسمُه: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [الضحى: ١ - ١١] اختُلف في سببِ نزولِ هذه السورةِ، فقيلَ: كان تركُ النبيِّ ﷺ قيامَ الليلِ لعذرٍ نزل به فتكلمَت امرأةٌ في ذلك بكلامٍ[1] وقيل: بل تكلم به المشركون عند فترةِ الوحي فنزلت هذه السورةُ[2].

تضمنَت هذه السورةُ من كرامةِ الله تعالى له، وتنويهِه به، وتعظيمِه إياه ستةَ وجوه:

الأولُ: القَسَم له عما أخبرَه به من حالِه بقولِه تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى: ١-٢] أي: وربِّ الضحى، وهذا مِن أعظمِ درجاتِ المبرَّة.

الثاني: بيانُ مكانتِه عندَه وحظوتِه لديه بقولِه تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ٣] أي: ما تَركك وما أَبغضكَ، وقيل: ما أَهملكَ بعد أنْ اصطفاكَ.

الثالثُ: قوله تعالى ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى: ٤] قال ابنُ إسحاق أي: مالك في مرجعِك عند الله أعظمُ مما أعطاكَ من كرامةِ الدنيا[3]، وقال

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢٤، ١١٢٥)، ومسلم (١٧٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٤٥) وأصله الحديث السابق.

(٣) سيرة ابن إسحاق (ص١٣٥).

سهلٌ: أي: ما ادَّخرتُ لك من الشفاعةِ والمقامِ المحمود خيرٌ لك مما أعطيتُك في الدنيا[(١)].

الرابعُ: قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥] وهذه آيةٌ جامعة لوجوه الكرامةِ وأنواع السعادةِ وشتاتِ الإنعامِ في الدارين والزيادةِ، قال ابنُ إسحاق: يُرضيه بالفُلْجِ[(٢)] في الدنيا والثوابِ في الآخرةِ[(٣)].

وقيل: يُعطيه الحوضَ والشفاعةَ.

ورُوي عن بعضِ آلِ النبيِّ ﷺ أنه قال: ليس آيةٌ في القرآنِ أرجى منها، ولا يَرضى رسولُ الله ﷺ أن يدخلَ أحدٌ من أمتِه النارَ[(٤)].

الخامسُ: ما عده تعالى عليه من نعمِه وقررَه من آلائِه قبلَه في بقيةِ السورةِ من هدايتِه إلى ما هداه له، أو هدايةِ الناسِ به على اختلافِ التفاسيرِ، ولا مالَ له فأغناه الله بما آتاه أو بما جعله في قلبِه من القناعةِ والغنى، ويَتيما فحدبَ عليه عمُّه وآواه إليه، وقيل: آواهُ إلى الله، وقيل: يَتيما لا مثالَ لك فآواكَ إليه، وقيل: المعنى ألم يَجدك فهدى بك ضالًّا وأغنى بك عائلًا وآوى بك يتيمًا؟ ذكَّره بهذه المننِ وأنه على المعلومِ من التفسيرِ لم يُهمله في حالِ صِغره وعيلتِه ويُتمِه وقبل معرفتِه به، ولا ودَّعه ولا قلاه فكيف بعد اختصاصِه واصطفائه؟

---

(١) تفسير سهل التستري (ص١٩٧).

(٢) (الفُلْج): الظفر والفوز.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٢٤١.

(٤) أخرج بعضه ابن خزيمة في التوحيد ٢/ ٦٧٣، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٧٩ عن علي بن أبي طالب، وأخرجه بتمامه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٧/ ١١٩ عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين.

السادسُ: أَمَرَه بإظهارِ نعمتَه عليه وشكرِهِ ما شرَّفه به بنشرِه وإشادةَ ذكرِه بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ١١] فإن مِن شكرِ النعمةِ الحديثَ بها وهذا خاصٌّ له عامٌّ لأمتِه.

وقال تعالى ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: ١ - ١٨].

تَضمنَت هذه الآياتُ من فضلِه وشرفِهِ العدِّ ما يقف دونه العدُّ، وأقسمَ جل اسمهُ على هدايةِ المصطفى، وتنزيهِهِ عن الهوى، وصدقهِ فيما تلا، وأنه وحيٌ يُوحى أوصَله إليه عن الله جِبريلُ عليه السلام وهو الشديدُ القُوىُ ثم أخبرَ تعالى عن فضيلته بقصةِ الإسراءِ وانتهائِهِ إلى سِدرةِ المنتهى، وتَصديقِ بصرِهِ فيما رأى، وأنه رأى من آياتِ ربهِ الكبرى، وقد نَبه على مثل هذا تعالى في أولِ سورةِ الإسراءِ.

ولما كان ما كاشفهُ عليه السلامُ من ذلك الجبروتِ، وشاهدَه من عجائبِ الملكوتِ لا تحيطُ به العباراتُ ولا تستقلُ بحملِ سماعِ أدناه العقولُ؛ رمزَ عنه تعالى بالإيماءِ والكنايةِ الدالةِ على التعظيم فقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النَجم: ١٠] وهذا النوعُ من الكلامِ يسميه أهلُ النقدِ والبلاغةِ بالوحي والإشارةِ وهو عندهم أبلغُ أبوابِ الإيجازِ، وقال تعالى : ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ انحسرَت الأفهامُ عن تفصيلِ ما أوحى، وتاهت الأحلامُ في تعيين تلك الآياتِ الكبرى.

اشتملَت هذه الآياتُ على إعلامِ الله تعالى بتزكيةِ جملتِه عليه السلام وعِصمتِها من الآفاتِ في هذا المَسرى، فزكَّى فؤادَه ولسانَه وجوارحَه، فزكى قلبَه بقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم: ١١]، ولسانَه بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم: ٣] وبصرَه بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم: ١٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥﴾ [التكوير: ١٥ - ٢٥].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي: أُقسم، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩﴾ أي: كريمٍ عند مرسلِه ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ على تبليغِ ما حمله من الوحي ﴿مَكِينٍ﴾ أي: متمكنُ المنزلةِ من ربه رفيعُ المحلِّ عنده ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في السماءِ ﴿أَمِينٍ﴾ على الوحي، قال عليُّ بنُ عيسى وغيرُه: الرسولُ الكريم هنا محمدٌ ﷺ فجميعُ الأوصافِ بعدُ على هذا له، وقال غيرُه: هو جبريلُ عليه السلام فتَرجعُ الأوصافُ إليه ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ يعني: محمدًا، قيل: رأى ربَّه، وقيل: رأى جبريلَ في صورتِه، وما هو على الغيبِ بظنين، أي: بمتهمٍ، ومَن قرأه بالضادِ فمعناهُ ما هو ببخيلٍ بالدعاءِ به والتذكيرِ بحكمِه وبعلمِه، وهذه لمحمدٍ عليه السلام باتفاقٍ.

وقال تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾ [القلم: ١ - ١٦].

أَقسمَ الله تعالى بما أقسمَ به من عظيمِ قَسمهِ على تنزيهِ المصطفى مما غَمصته الكفرةُ به وتكذيبِهم له وآنسهُ وبسط أملَه بقولِه مُحسنًا خطابهَ ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ وهذه نهايةُ المبرةِ في المُخاطبةِ، وأعلى درجاتِ الآدابِ في المحاورةِ، ثم أعلمَه بما له عندَه من نعيمٍ دائمٍ وثوابٍ غيرِ منقطعٍ لا يأخذُه عَد ولا يمتنُّ به عليه، فقالَ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ثم أثنى عليه بما منحَه من هباتِه وهداه إليه، وأكدَ ذلك تَتميمًا للتَمجيدِ بحرفي التأكيدِ، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ قيل: القرآنُ، وقيل: الإسلامُ، وقيل: الطبعُ الكريمُ، وقيل: ليس لك همةٌ إلا الله.

قال الواسطيُّ: أثنى عليه بحُسنِ قبولِه لما أسداه إليه مِن نِعمه وفضلِه بذلك على غيرِه؛ لأنه جبلَه على ذلك الخلقِ، فسبحان اللطيفُ الكريمُ المحسنُ الجوادُ الحميد الذي يسَّر للخيرِ وهدى إليه، ثم أَثنى على فاعلِه، وجازاه عليه سبحانه ما أغمرَ نوالَه وأوسعَ إفضالَه، ثم سلاه عن قولِهم بعد هذا بما وعدَه به من عقابِهم وتَوعدَهم بقوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

ثم عطفَ بعد مدحِه على ذم عدوهِ، وذِكر سوءِ خلقِه، وعَدِّ معايبِه متوليًا ذلك بفضلِه ومنتصرًا لنبيهِ، فذكرَ بضعَ عشرةَ خصلة من خصالِ الذمِّ فيه بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ

﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ ثم خَتم ذلك بالوعيدِ الصادقِ بتمامِ شقائِه وخاتمةِ بوارِه بقوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ فكانت نُصرةُ الله له أتمَّ من نصرتِه لنفسه، وردُّه تعالى على عدوه أبلغَ من رده، وأثبتَ في ديوانِ مجدِه.

٦- فصل فيما ورد من قولِه تعالى في جهتِه عليه السلام موردَ [الرأفة] والإكرامِ

قال تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه: ١ - ٢].

نزلَت الآيةُ فيما كان النبيُّ ﷺ يتكلفُه من السهرِ والتعبِ وقيامِ الليلِ.

ولا خفاءَ بما في هذا كلِّه من الإكرامِ وحسنِ المعاملةِ.

ومثلُ هذا من نمطِ [الرأفةِ] والمبرَّةِ قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦] أي: قاتِلٌ نفسَك لذلك غَضبًا أو غيظًا أو جزعًا.

ومثلُه قوله تعالى أيضا: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣]، ثم قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ [الشعراء: ٤].

ومن هذا الباب قولُه تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٩٦ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧﴾ [الحجر: ٩٤ - ٩٧] وقولُه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام: ١٠].

قال مَكيٌّ: سلاهُ تعالى بما ذكرَ، وهوَّنَ عليه ما يلقى مِن المشركينَ، وأعلمَه أن مَن تمادى على ذلك يحلُّ به ما حل بمَن قبلَه[١].

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٣/ ١٩٦٥.

ومثلُ هذه التسليةِ قولُه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤] ومِن هذا قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢] عَزَّاه الله تعالى بما أخبرَه به عن الأممِ السالفةِ ومقالِها لأنبيائِهم قبلَه، ومِحنتِهم بهم، وسَلاه بذلك عن مِحنته بمثلِه من كفارِ مكةَ، وأنه ليس أولَ مَن لقي ذلك، ثم طيَّب نفسَه وأبان عُذرَه بقولِه تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [الذاريات: ٥٤] أي: أَعرِض عنهم، ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ أي: في أداءِ ما بَلغتَ، وإبلاغِ ما حُملتَ.

ومثلُه قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] أي: اصبِر على أذاهُم فإنك بحيثُ نراك ونَحفظُك، سَلَّاه الله تعالى بهذا في آيٍ كثيرةٍ من هذا المعنى.

٧- فصل فيما أخبرَ الله تعالى به في كتابِه العزيزِ من عظيم قدرِه وشريفِ منزلتِه على الأنبياءِ وحظوةِ رتبتِه عليهم

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عِمران: ٨١].

قال أبو الحسنِ القابسيُّ: استخصَّ الله تعالى محمدًا ﷺ بفضلٍ لم يؤته غيرَه أبانَه به، وهو ما ذكرَه في هذه الآيةِ، قال المفسرون: أخذَ الله الميثاقَ بالوحي، فلم يبعثْ نبيًّا إلا ذكرَ له محمدًا ونعتَه وأخذَ عليه ميثاقَه إن أدركَه لَيؤمنن به، وقيل: أن يبينَه لقومِه، ويأخذَ ميثاقَهم أن يبينوه لَمن بعدَهم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧] وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قال أهلُ التفسيرِ: أرادَ بقولِه: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ محمدًا ﷺ؛ لأنه بُعث إلى الأحمرِ والأسودِ، وأُحلت له الغنائمُ، وظهرت على يديه المعجزاتُ، وليس أحدٌ من الأنبياءِ أُعطي فضيلةً أو كرامةً إلا وقد أُعطي محمدٌ ﷺ مثلَها.

قال بعضُهم: ومن فضلِه أن الله تعالى خاطَب الأنبياءَ بأسمائِهم، وخاطبَه بالنبوةِ والرسالةِ في كتابِه فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ [الأنفال: ٦٤] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١].

٨- فصل في إعلامِ الله تعالى خلقَه بصلاتِه عليه وولايتِه له ورفعِه العذابَ بسببه

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ [الأنفال:٣٣] أي: ما كنتَ بمكةَ، فلما خَرجَ النبيُّ ﷺ من مكةَ وبقيَ فيها مَن بقيَ من المؤمنين نزل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال:٣٣].

وهذا مثل قوله: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥﴾ [الفتح:٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الفتح:٢٥].

فلما هاجَرَ المؤمنون نزلت: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٤]، وهذا من أبينِ ما يُظهرُ مكانتَهُ ﷺ، ودرأَ به العذابَ عن أهلِ مكةَ بسببِ كونِه ثم كون أصحابِه بعده بين أظهُرِهِم، فلما خَلت مكةُ منهم عذَّبَهم بتسليطِ المؤمنين عليهم وغَلَبَتِهم إياهم، وحَكَّمَ فيهم سُيوفَهُم وأورَثَهم أرضَهم وديارَهم وأموالهم.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦] أبانَ الله تعالى فضلَ نبيِّه ﷺ بصلاتِه عليه ثم بصلاةِ ملائكتِه وأمرَ عبادَه بالصلاةِ والتسليمِ عليه.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾ [التحريم: ٤] ﴿مَوۡلَىٰهُ﴾ أي: وَليُّه.

٩- فصل فيما تضمَّنته سورةُ الفتحِ من كراماتِه ﷺ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ...﴾ [الفتح:١-١٠].

تضمَّنت هذه الآياتُ من فضلِه والثناءِ عليه وكريمِ منزلتِه عند الله تعالى ونعمتِه لديه ما يقصرُ الوصفُ عن الانتهاءِ إليه، فابتدأَ جل جلاله بإعلامِه بما قضاه له من القضاءِ البين بظهورِه وغلبتِه على عدوِّه، وعلو كلمتِه وشريعتِه، وأنه مغفورٌ له غيرُ مؤاخَذٍ بما كان وما يكون.

قال بعضُهم: أرادَ غُفرانَ ما وقعَ وما لم يَقَع أي: إنك مغفورٌ لك.

وقال مكيٌّ: جعلَ المنة سببًا للمغفرةِ، وكلٌّ من عندِه -لا إله غيرُه- منةً بعد منةٍ، وفضلًا بعد فضلٍ[(١)].

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ١١/ ٦٩٢٦.

ثم قال: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ قيل: بخضوعِ من تكبرَ عليك.

وقيل: بفتحِ مكةَ والطائفِ.

وقيل: يرفعُ ذكرَك في الدنيا وينصُرُك ويغفرُ لك.

فأعلَمَه بتمامِ نعمتِه عليه، بخضوعِ متكبري عدوه له، وفتحِ أهم البلادِ عليه وأحبِّها له، ورفعِ ذكرِه، وهدايتِه الصراطَ المستقيمَ المبلغ الجنةَ والسعادةَ، ونصرِهِ النصرَ العزيزَ، ومِنَّتِه على أمتهِ المؤمنين بالسكينةِ والطمأنينةِ التي جعلَها في قلوبِهم، وبشارتِهم بما لهم بَعدُ، وفوزِهم العظيم، والعفو عنهم، والسترِ لذنوبِهم، وهلاك عدوِّه في الدنيا والآخرةِ، ولعنِهم وبُعدِهم من رحمتِه وسوءِ منقلبِهم.

ثم قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح: ٨-٩] فعدَّدَ محاسنَهُ وخصائصهُ من شهادتِه على أمتهِ لنفسهِ بتبليغِهِ الرسالةَ لهم.

وقيل: ﴿شَٰهِدًا﴾ لهم بالتوحيدِ، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لأمتِهِ بالثوابِ. وقيل: بالمغفرةِ، ومنذرًا عدوه بالعذابِ. وقيل: محذرًا من الضلالات؛ ليؤمنَ بالله ثم به مَن سَبقَت له من الله الحُسنى.

[﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾] أي: يُجلونه. وقيل: ينصرونَه. وقيل: يُبالِغون في تعظيمِه.

[﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾] أي: يُعظمونه.

ثم قال: [﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾] فهذا راجعٌ إلى الله تعالى.

قال ابن عطاءٍ: جُمعَ للنبيِّ ﷺ في هذه السورةِ نِعمٌ مختلفةٌ: من الفتحِ المبين وهي من أعلامِ الإجابة، والمغفرةِ وهي من أعلامِ المحبةِ، وتمامِ النعمةِ وهي من أعلامِ الاختصاصِ، والهدايةِ وهي من أعلامِ الولاية(١).

وقال جعفرُ بن محمدٍ: من تمامِ نعمتِه عليه أن جعلَه حبيبَه، وأقسَمَ بحياتِه، ونسخَ به شرائعَ غيرِه، وعرجَ به إلى المحلِّ الأعلى، وحفظَه في المعراجِ حتى ما زاغَ البصرُ وما طغى، وبعثَه إلى الأسودِ والأحمرِ، وأحلَّ له ولأمتِه الغنائِمَ، وجعلَه شفيعًا مُشفَّعًا، وسيدَ ولدِ آدمَ، وقرنَ ذكرَه بذكرِه، ورضاهُ برضاه، وجعله أحدَ رُكنَي التوحيدِ(٢).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ يعني: بيعةَ الرضوانِ، أي: إنما يُبايِعون الله ببيعَتِهم إياك، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ يُريدُ عند البيعةِ.

---

(١) انظر: تفسير السلمي ٢/ ٢٥٤.

(٢) السابق.

١٠- فصل فيما أظهرهُ اللهُ تعالى في كتابِه العزيزِ من كرامتِه عليه ومكانتِه عنده وما خصَّه به من ذلك سوى ما انتظمَ فيما ذكرناه قبلُ

من ذلك ما نصَّهُ تعالى من قصةِ الإسراءِ في سورةِ سبحان والنجم، وما انطوت عليه القصةُ من عظيمِ منزلتِه وقُربِه ومشاهدتِه ما شاهدَ من العجائِبِ.

ومن ذلك: عصمتُه من الناسِ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة:٦٧].

وقوله: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

وقوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٤٠].

وما دفعَ الله به عنه في هذه القصةِ من أذاهُم بعد تَحَزُّبِهم لهُلكِه وخلوصِهم نجيًّا في أمره، والأخذِ على أبصارِهم عند خروجِه عليهم، وذُهولِهم عن طلبِه في الغارِ، وما ظهرَ في ذلك من الآيات ونزولِ السكينةِ عليه، وقصةِ سراقةَ بنِ مالك حسبما ذكرَه أهلُ الحديثِ والسيرِ في قصة الغارِ وحديثِ الهجرةِ.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر:١-٣]، أعلمَهُ الله عز وجل بما أعطاهُ، والكوثرُ حوضُه.

وقيل: نهرٌ في الجنةِ. وقيل: الخيرُ الكثيرُ. وقيل: الشفاعةُ. وقيل: المعجزاتُ الكثيرةُ. وقيل: النبوةُ. وقيل: المعرفةُ.

ثم أجاب عنه عدوَّه وردَّ عليه قولَه، فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ أي: عدوَّك ومبغضَك، والأبترُ: الحقيرُ الذليلُ، أو المفردُ الوحيدُ، أو الذي لا خيرَ فيه.

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل:٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر: ٨٧] قيل: السبعُ المثاني: السورُ الطوالُ الأُول ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾: أمُّ القرآنِ. وقيل: السبعُ المثاني: أمُّ القرآنِ، ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾: سائرُه. وقيل: السبعُ المثاني: ما في القرآنِ من أمرٍ ونهيٍ وبشرى وإنذارٍ وضربِ مثلٍ وإعداد نعَمٍ، وآتيناكَ نبأ القرآنِ العظيم، وقيل: سُميت أم القرآن مثاني؛ لأنها تُثنى في كل ركعةٍ، وقيل: بل الله تعالى استثناها لمحمدٍ ﷺ وادَّخرها له دون سائر الأنبياءِ، وسُمي القرآنَ مثاني؛ لأن القصصَ تُثنى فيه.

وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ:٢٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٨﴾ [الأعراف:١٥٨].

فهذه من خصائِصِه، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم:٤] فخَصَّهم بقومِهم، وبَعثَ محمدًا ﷺ إلى الخلقِ كافةً.

وقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ [الأحزاب: ٦]، قال أهلُ التفسيرِ: ﴿أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: ما أنفذَه فيهم من أمرٍ فهو ماضٍ عليهم كما يَمضي حكمُ السيدِ على عبدِه، وقيل: اتباعُ أمرِه أولى من اتباعِ رأيِ النفسِ.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]، قيل: فضلُه العظيمُ بالنبوةِ، وقيل: بما سبق له في الأزلِ.

ومن فضائِلِه ﷺ: إقسامُ الله تعالى برسالتِه خصوصًا بقولِه تعالى: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يس:١ - ٣]، بعدَ أن كان مع الرسلِ باسمِ الرسالةِ معمومًا بقولِه تعالى ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر:٥١]، والرسلُ في هذا البابِ على السواء فكان ذلك غايةَ الفَضيلةِ في المرتبة والمنزلةِ.

ومن فضائِلِه ﷺ: أخذُ الله الميثاقَ على جميعِ أنبيائِه عليهم السلام أن جاءَهُم رسولٌ آمَنوا به ونصَروه فلم يَكُن ليُدرِك أحَدٌ منهم الرَّسولَ إلَّا وجبَ عليه الإيمانُ به والنصرةُ له لأَخذِه الميثاقَ منهم، فجعَلَهم كلهم أَتباعًا له، يَلزمُهم الانقيادُ والطاعةُ له لو أَدرَكوه.

الباب الثاني: في تكميل الله تعالى له المحاسن خَلقًا وخُلقًا وقرانه جميعَ الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقًا

اعلم أيها المحبُّ لهذا النبي الكريمِ ﷺ الباحث عن تفاصيلِ جمَل قَدْره العظيم أن خصالَ الجمال والكمال في البشر نوعان:

- ضروري دنيوي اقتضته الجِبلَّة وضرورةُ الحياة الدنيا.
- ومكتسب ديني، وهو ما يُحمد فاعله ويقربُ إلى الله تعالى زُلفى.

فأما الضروري المحضُ فما ليس للمرءِ فيه اختيار ولا اكتسابٌ، مثل ما كان في جبلته من كمالِ خلقته، وجمال صورتِه، وقوة عقلِه، وصحةِ فهمه، وفصاحة لسانه، وقوة حواسِّه، وأعضائه، واعتدالِ حركاته، وشرف نسبِه، وعزة قومِه، وكرمِ أرضه، ويَلحقُ به ما تدعوه ضرورةُ حياته إليه من غذائِه ونومه وملبسِه ومسكنِه ومنكحه ومالِه وجاهِه، وقد تلحقُ هذه الخصال الآخرة بالأخروية إذا قَصدَ بها التقوى ومعونةَ البدنِ على سلوك طريقِها وكانت على حدود الضرورةِ وقوانين الشريعة.

وأما المكتسبةِ الأخروية فسائرُ الأخلاق العلية والآداب الشرعية من الدين، والعلم، والحِلم، والصبرِ، والشكرِ، والعدل، والزهد، والتواضعِ، والعفو، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياءِ، والمروءة، والصمتِ، والتُّؤدةِ، والوقار، والرحمة، وحسنِ الأدبِ، والمعاشرة، وأخواتِها، وهي التي جماعُها: حُسنُ الخُلقِ.

وقد يكون من هذه الأخلاقِ ما هو في الغريزةِ وأصل الجِبلةِ لبعض الناسِ، وبعضُهم لا تكون فيه فيَكتَسِبها، ولكنه لا بد أن يكون فيه من أصولها في أصلِ الجبلةِ شعبةٌ كما سنبينه إن شاء الله تعالى، وتكون هذه الأخلاقُ دنيوية إذا لم يُرَدْ بها وجهُ الله والدارُ الآخرة، ولكنها كلها محاسن وفضائل باتفاقِ أصحاب العقولِ السليمة وإن اختلفوا في موجبِ حسنها وتفضيلها.

١- فصل [في اجتماع خصال الكمال والجلال البشري في النبي ﷺ]

إذا كانت خصالُ الكمالِ والجلالِ ما ذكرناه، ووجدنا الواحدَ منا يشرفُ بواحدةٍ منها أو اثنتينِ إن اتفقَت له في كل عصرٍ، إما من نسبٍ أو جمالٍ أو قوة أو علمٍ أو حلم أو شجاعةٍ أو سماحةٍ، حتى يَعظمَ قدرُه ويُضربَ باسمه الأمثالُ، ويَتقرر له بالوصف بذلك في القلوبِ أثرَة وعظمةٌ، وهو منذ عصور خوالٍ رمم بوالٍ، فما ظنكَ بعظيمِ قدرِ مَن اجتمعَت فيه كلُّ هذه الخصالِ إلى ما لا يأخذُه عدٌّ ولا يُعبر عنه مقالٌ، ولا يُنال بكسبٍ ولا حيلةٍ إلا بتخصيصِ الكبيرِ المتعال، من فضيلةِ النبوةِ، والرسالةِ، والخلةِ، والمحبةِ، والاصطفاءِ، والإسراءِ، والرؤيةِ، والقربِ، والدنوِ، والوحي، والشفاعةِ، والوسيلةِ، والفضيلةِ، والدرجة الرفيعةِ، والمقام المحمودِ، والبراقِ، والمعراجِ، والبعثِ إلى الأحمرِ والأسودِ، والصلاةِ بالأنبياءِ، والشهادةِ بين الأنبياءِ والأممِ، وسيادةِ ولدِ آدمِ، ولواءِ الحمدِ، والبشارة، والنذارةِ، والمكانةِ عند ذي العرشِ، والطاعةِ ثَمَّ، والأمانةِ، والهداية، ورحمةٍ للعالمين، وإعطاءِ الرِّضى، والسؤلِ، والكوثرِ، وسماعِ القولِ، وإتمام النعمةِ، والعفوِ عما تقدمَ وما تأخرَ، وشرحِ الصدر، ووضعِ الوزر، ورفعِ الذكر، وعزةِ النصرِ، ونزولِ السكينة، والتأييدِ بالملائكة، وإيتاءِ الحكمةِ، والكتاب، والسبعِ المثاني، والقرآنِ العظيمِ، وتزكيةِ الأمة، والدعاءِ إلى الله، وصلاةِ الله تعالى والملائكةِ، والحكمِ بين الناس بما أراه الله، ووضعِ الإصر والأغلالِ عنهم، والقَسمِ باسمه، وإجابةِ دعوته، وتكليمِ الجماداتِ والعجمِ، وإحياءِ الموتى، وإسماعِ الصمِ، ونبعِ الماء من بين أصابعِه، وتكثيرِ القليلِ، وانشقاق القمرِ، ورد

الشمسِ، وقلبِ الأعيان، والنصرِ بالرعب، والاطلاعِ على الغيبِ، وظلِ الغمام، وتسبيحِ الحصى، وإبراءِ الآلامِ، والعصمةِ من الناس، إلى مالا يحويه محتفلٌ، ولا يحيطُ بعلمِه إلا مانحُه ذلك ومُفضِّلُه به، لا إله غيره، إلى ما أعدَّ له في الدار الآخرةِ من منازلِ الكرامةِ، ودرجاتِ القدسِ، ومراتبِ السعادةِ، والحسنى، والزيادةِ التي تقفُ دونها العقولُ ويحارُ دون أدانيها الوهمُ.

٢- فصل [في إحاطته بخصال الكمال البشري غير المكتسبة]

إن قلتَ -أكرمَك الله-: لا خفاءَ على القطعِ بالجملةِ أنه ﷺ أعلى الناس قدرًا، وأعظمهم محلًّا، وأكملهم محاسنَ وفضلًا، وقد ذَهَبتَ في تفاصيلِ خصالِ الكمال مذهبًا جميلًا شوَّقني إلى أن أقفَ عليها من أوصافِه ﷺ تفصيلًا.

فاعلَم نوَّر الله قلبي وقلبَك وضاعفَ في هذا النبي الكريمِ حُبي وحُبك، أنك إذا نَظرتَ إلى خِصالِ الكمالِ التي هي غيرُ مكتسبةٍ، وفي جِبلَّة الخلقةِ، وجَدتَه حائزًا لجميعِها محيطًا بشتاتِ محاسنِها دون خلافٍ بين نقلةِ الأخبارِ لذلك، بل قد بلغَ بعضُها مَبلغَ القَطعِ.

فصل [في صورته وجمالها وتناسب أعضائه في حسنِها]

أما الصورةُ وجمالها [و]تناسب أعضائه في حسنِها؛ فقد جاءت الآثارُ الصحيحة والمشهورةُ الكثيرة بذلك: من أنه ﷺ كان أزهرَ اللونِ، أدعجَ[(١)]، أَنْجلَ[(٢)]، أَشْكلَ[(٣)]، أَهْدبَ الأشفارِ[(٤)]، أَبْلَج[(٥)]، أَزَجَّ[(٦)]، أَقْنَى[(٧)]، أَفْلَجَ[(٨)]،

---

(١) (أدعجَ) شديد سواد الحدقة.
(٢) (أنجلَ) واسع شق العين.
(٣) (أَشْكلَ) الشكلة: حمرة في بياض العين.
(٤) (أَهْدبَ الأشفارِ): كبير أشفار العين.
(٥) (أَبْلَج): مشرق الوجه.
(٦) (أَزَجَّ): مقوس الحاجب مع طوله وامتداده.
(٧) (أَقْنَى) محدودب الأنف.
(٨) (أَفْلَجَ) بعيد ما بين الثنايا.

مدور الوجه، واسعَ الجبين، كثَّ اللحية تملأ صدرَه، سواءَ البطنِ والصدر[١]، واسعَ الصدرِ، عظيم المنكبين، ضخمَ العظام، عَبْلَ[٢] العضدين والذراعين والأسافل، رحب الكفين والقدمين، سائلَ الأطرافِ[٣]، أنورَ المتجرد[٤]، دقيقَ المَسْرُبَة[٥]، ربعةَ القدِ، ليس بالطويل البائنِ، ولا القصيرِ المتردد، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحدٌ ينسب إلى الطولِ إلا طاله ﷺ، رجِلَ الشعر[٦].

إذا افتر ضاحكًا افترَّ عن مثل سنا البَرقِ وعن مثل حب الغمام، إذا تكلم رُئِيَ كالنور يخرج من ثناياه، أحسن الناس عنقًا، ليس بمُطهَّم[٧]، ولا مُكَلثَم[٨]، متماسكَ البدنِ، ضَرْبَ اللحمِ[٩].

فصل [في نظافة جسمه وطيبُ ريحه وعرقِه ونزاهته]

وأما نظافةُ جسمه وطيبُ ريحه وعرقِه ونزاهته عن الأقذارِ وعورات الجسدِ فكان قد خصه الله في ذلك بخصائصَ لم توجد في غيره، ثم تممها بنظافةِ الشرعِ وخصالِ الفطرة العشرِ.

---

(١) (سواءَ البطنِ والصدر): مستويهما.

(٢) (عَبْلَ): ضخم.

(٣) (سائلَ الأطرافِ) طويل الأصابع.

(٤) (أنورَ المتجرد): المتجرد: ما تجرد عند الثياب من البدن.

(٥) (دقيقَ المَسْرُبَة) المسربة: خيط الشعر الذي بين الصدر والسرة.

(٦) (رجِلَ الشعر):شعر رجل إذا لم يكن شديد الجعود ولا سبطًا.

(٧) (المُطهَّم): المنتفخ الوجه، وقيل الفاحش السمن.

(٨) (المُكَلْثَم) الكلثمة: اجتماع لحم الوجه.

(٩) (ضَرْبَ اللحمِ) قليله.

فعن أنس قال: ما شمَمْت عنبرًا قطُّ ولا مسكًا ولا شيئًا أطيبَ من ريح رسول الله ﷺ[(١)].

ونام رسول الله ﷺ في دار أنس على نطع فعرق، فجاءت أمُّه بقارورةٍ تجمع فيها عرقَه، فسألها رسولُ الله ﷺ عن ذلك، فقالت: نجعَلُه في طِيبنا، وهو من أطيبِ الطِّيب[(٢)].

وأما وفورُ عقله، وذكاء لُبه، وقوة حواسِّه، وفصاحة لسانِه، واعتدال حركاته، وحُسن شمائِله، فلا مِريةَ أنه كان أعقلَ الناسِ وأذكاهم، ومن تأمل تدبيره أمرَ بواطن الخَلْق وظواهرهم وسياسة العامة والخاصة مع عجب شمائله وبديع سيره، فضلًا عما أفاضه من العلم وقرَّره من الشرع دون تعلُّم سبقَ، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعةٍ للكتب منه؛ لم يَمترِ في رجحان عقله، وثقوب فَهمه لأول بديهة، وهذا ما لا يُحتاج إلى تقريره لتحقيقه.

وفي الموطأ عنه عليه السلام: «**إِنِّي لأَراكُمْ مِنْ وَراءِ ظَهْري**»[(٣)] وفي بعض الروايات «**إنِّي لأُبصِرُ مِن قَفاي كما أُبصِرُ مِن بين يَدَيَّ**»[(٤)].

والأخبار كثيرة صحيحة في رؤيته ﷺ للملائكةِ والشياطين.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٣٠).
(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣١).
(٣) أخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٦٧، والبخاري (٤١٨).
(٤) أخرجه مسلم (٤٢٣) ولفظه: «...من ورائي...».

وقد جاءت الأخبارُ بأنه صرعَ رُكانةَ[١] أشد أهلِ وقته وكان دَعاه إلى الإسلامِ وصارعَ أبا رُكانةَ في الجاهليةِ وكان شديدًا وعاوَدَه ثلاثَ مراتٍ، كل ذلك يصرعُه رسولُ الله ﷺ.

وفي صفته عليه السلام أن ضَحِكه كان تبسُّمًا، إذا التَفَت التَفَت معًا، وإذا مشى مشى تقلعًا كأنما ينحطُّ من صبَب.

فصل [في فصاحة اللسان وبلاغة القول]

وأما فصاحةُ اللسان وبلاغةُ القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحلِّ الأفضل، والموضعِ الذي لا يُجهَل، سلاسة طبعٍ، وبراعةَ منزعٍ، وإيجاز مقطعٍ، ونصاعة لفظ، وجزالة قولٍ، وصحة معانٍ، وقلة تكلف، أُوتيَ جوامعَ الكلم، وخُصَّ ببدائع الحكم، وعُلِّمَ ألسنةَ العربِ، فكان يخاطبُ كلَّ أمةٍ منها بلسانِها ويحاورُها بلغتِها ويُباريها في منزعِ بلاغتِها.

فصل [في كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة وجوامع كلمِه وحكَمه المأثورة]

وأمَّا كلامُه المعتادُ وفصاحتُه المعلومةُ وجوامعُ كلمِه وحِكَمُه المأثورة فقد ألَّف الناسُ فيها الدواوينَ، وجُمِعت في ألفاظها ومعانيها الكتُب، ومنها ما لا يُوازَى فصاحةً، ولا يُبارَى بلاغةً كقوله: «**المُسلِمون تَتكافَأُ دِماؤُهم، ويَسعَى بِذِمَّتِهم أَدناهُم، وهم يَدٌ على مَن سِواهُم**»[٢]، و«**المَرْءُ معَ مَن أحبَّ**»[٣]، و«**الناسُ**

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٧٨)، والترمذي (١٧٨٤).
(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٥١)، وابن ماجه (٢٦٨٥).
(٣) أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠).

مَعادِنُ»[(١)]، ونهيُه عن قِيل وقال، وكثرةِ السؤال، وإضاعةِ المال، ومنع وهات، وعقوق الأمهات، ووَأْد البنات[(٢)]، وقوله: «**الظُّلْمُ ظُلُماتٌ يومَ القِيامةِ**»[(٣)]، إلى ما روَتْه الكافَّةُ عن الكافَّةِ من مقاماتِه ومحاضراتِه وخطبِه وأدعيتِه ومخاطباتِه وعهودِه، ممَّا لا خلافَ أنه نزلَ من ذلك مرتبةً لا يُقاسُ بها غيرُه وحاز فيها سبقًا لا يُقدَرُ قدرُه.

وقد جمعت من كلماته التي لم يُسبَق إليها ولا قدَرَ أحدٌ أن يفرغَ في قالَبه عليها كقوله: «**حَمِيَ الوَطيسُ**»[(٤)]، و«**لا يُلدَغ المُؤمِنُ من جُحْرٍ مرَّتَيْن**»[(٥)]، في أخواتِها ما يُدرِكُ الناظرُ العجبَ في مضمَّنِها ويذهبُ به الفكرُ في أداني حكمِها.

فجُمِعَ له ﷺ قوةُ عارضةِ الباديةِ وجزالتِها، ونصاعةُ ألفاظِ الحاضرةِ ورونقِ كلامِها، إلى التأييدِ الإلهي الذى مَدَدُه الوحيُ الذي لا يحيطُ بعلمِه بشريٌّ.

فصل [في شرف نسَبه ﷺ وكرَم بلَده ومَنشئه]

وأما شرفُ نسَبه ﷺ وكرَم بلَده ومَنشئِه فما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، ولا بيان مُشكِل ولا خفيٍّ منه، فإنه نُخبةُ بني هاشم، وسلالة قريشٍ وصميمها، وأشرفُ العرب وأعزهم نفرًا من قِبَل أبيه وأمه، ومن أهل مكة من أكرَم بِلادِ الله على الله وعلى عِباده.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩٦)، ومسلم (٢٥٢٦).
(٢) أخرجه البخاري (٥٩٧٥)، ومسلم (٥٩٣).
(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩).
(٤) أخرجه مسلم (١٧٧٥).
(٥) أخرجه البخاري (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨).

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**بُعِثْتُ مِنْ خَيرِ قُرونِ بني آدَمَ قرنًا فقرنًا، حتَّى كنتُ مِنَ القَرْنِ الذي كُنتُ منه**»[(١)].

وعن واثلةَ بنِ الأَسقَع قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ اصطَفَى مِن ولَدِ إبراهيمَ إسماعيلَ، واصطَفَى مِن ولَدِ إسماعيلَ بَني كِنانةَ، واصطَفَى من بَني كِنانةَ قُريشًا، واصطَفَى مِن قُريشٍ بني هاشِمٍ، واصطَفاني من بَني هاشِمٍ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٥٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٦).

٣- فصل [في ضروب ما تدعو ضرورة الحياة إليه]

وأما ما تدعو ضرورة الحياة إليه ممَّا فصَّلناه فعلى ثلاثة أضرُب:

- ضرب الفَضْل في قِلَّته.
- وضرب الفضل في كَثرته.
- وضرب تَختلِف الأحوال فيه.

فصل [في الضرب الأول]

فأمَّا ما التَّمدُّح والكمال بقِلَّته اتفاقًا وعلى كل حال عادة وشريعة كالغذاءِ والنوم، ولم تزل العربُ والحكماء تتمادح بقِلَّتهما وتَذُمُّ بكثرتهما؛ لأن كثرة الأكلِ والشرب دليل على النهَم والحِرْص والشَّرَه وغلبة الشهوة، مسبِّب لمضار الدنيا والآخرة، جالبٌ لأدواء الجسدِ، وخثارة النفس، وامتلاء الدماغ، وقِلته دليل على القناعة وملك النفسِ، وقمع الشهوة مسبِّب للصحة، وصفاء الخاطر، وحِدَّة الذِّهْن، كما أن كثرة النومِ دليل على الفُسولةِ والضعف، وعدمِ الذكاء والفطنة مسبِّب للكسلِ، وعادةِ العجز، وتضييع العُمر في غير نفع، وقساوة القلب، وغفلته وموته.

والشاهدُ على هذا ما يعلم ضرورة، ويوجدُ مشاهدةً، ويُنقَل متواتِرًا من كلام الأمم المتقدمة والحُكَماء السالفين وأشعارِ العرب وأخبارها، وصحيحِ الحديث، وآثار مَن سلَف وخلَف مما لا يُحتاج إلى الاستشهاد عليه، وإنما تركنا ذِكْره هنا اختصارًا واقتِصارًا على اشتهار العلم به.

وكان النبيُّ ﷺ قد أخَذ من هذين الفَنَّيْن بالأقل، هذا ما لا يُدفع من سِيرته، وهو الذي أمَر به وحضَّ عليه، لا سِيَّما بارتباط أحَدِهما بالآخَر.

عن المِقدام بنِ مَعدي كرِب أن رسول الله ﷺ قال: «**ما ملَأَ ابنُ آدمَ وعاءً شَرًّا مِن بَطْنِه، حسبُ ابنِ آدمَ أكلاتٍ يُقِمْن صُلْبَه، فإن كان لا مَحالةَ فثُلُث لطَعامِه وثُلُث لشَرابه وثُلُث لنَفَسِه**»[(١)].

وفي صحيح الحديث قوله: «**أمَّا أنا فلا آكُلُ مُتَّكئًا**»[(٢)] والاتكاء هو التمكُّن للأكل والتقَعْدُدُ في الجلوس له كالمتربِّع وشبهه من تَمكُّن الجلسات التي يعتمد فيها الجالسُ على ما تحتَه، والجالس على هذه الهيئة يَستدعي الأكل ويَستكثِر منه، والنبي ﷺ إنما كان جلوسُه للأكل جلوسَ المستوفِز[(٣)] مُقْعِيًا[(٤)].

وكذلك نومه ﷺ كان قليلًا شهِدَت بذلك الآثارُ الصحيحة، ومع ذلك فقد قال ﷺ: «**إنَّ عَينَيَّ تنامانِ ولا يَنامُ قَلْبي**»[(٥)].

فصل [في الضرب الثاني]

والضرب الثاني: هو ما يَتَّفِق التَّمدُّح بكَثْرته والفخر بوُفوره كالنِّكاح والجاه، فأمَّا النِّكاح فمُتَّفَق فيه شرعًا وعادة فإنه دليل الكمال وصحة الذُّكورية ولم يزَلِ التفاخر بكثرته عادة معروفة والتمادح به سيرة ماضية.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٩٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٤٤).

(٤) (المُسْتَوفِز): المستعجل. و(الإِقْعَاءُ): أن يلصق الرجل أليتيه بالأرض وينصب ساقيه ويتسانَدَ إلى ظهره.

(٥) أخرجه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨).

وأما في الشرع فسُنة مأثورة، وقد قال ابنُ عباس: أفضلُ هذه الأُمةِ أكثرُها نِساءً[١]. مشيرا إليه ﷺ.

ونهى عن التَّبتُّل[٢] مع ما فيه من قمع الشهوة.

فإن قلتَ: كيف يكونُ النكاحُ وكثرتُه من الفضائلِ، وهذا يحيى بنُ زكريا عليه السلام قد أَثنى الله تعالى عليه أنه كان حصورًا، فكيف يُثني الله بالعجزِ عما تَعده فضيلةً، وهذا عيسى ابنُ مريمَ عليه السلام تبتَّل من النساءِ ولو كان كما قَررتَه لنكحَ؟

فاعلم أن ثناءَ الله تعالى على يحيى بأنه حصورٌ ليس كما قال بعضُهم: إنه كان هيوبًا أو لا ذَكَرَ له، بل قد أنكرَ هذا حُذاقُ المفسرين، ونقادُ العلماءِ، وقالوا: هذه نَقيصةٌ وعيب، ولا يليقُ بالأنبياءِ، وإنما معناه أنه معصومٌ من الذنوبِ، أي: لا يأتيها كأنه حُصرَ عنها، وقيل: مانعًا نفسَه من الشهواتِ. وقيل: ليست له شهوةٌ في النساءِ.

فقد بان لك من هذا أن عدمَ القدرةِ على النكاحِ نقصٌ، وإنما الفضلُ في كونِها موجودة، ثم قمعها إما بمجاهدةٍ كعيسى عليه السلام أو بكفايةٍ من الله تعالى كيحيى عليه السلام فضيلةً زائدة لكونِها شاغلة في كثيرٍ من الأوقاتِ حاطةً إلى الدنيا، ثم هي في حق مَن أقدرَ عليها ومُلِّكَها، وقام بالواجبِ فيها، ولم تشغله عن ربه درجةٌ عُليا، وهي درجةُ نبينا ﷺ الذي لم تَشغله كثرتُهن عن عبادةِ ربه، بل

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢).

زادَه ذلك عبادةً لتحصينِهن وقيامِه بحقوقِهن واكتسابِه لهن، وهدايتِه إياهن، بل صرَّح أنها ليست من حُظوظِ دنياه هو، وإن كانت من حظوظِ دنيا غيرِه، فقال: «**حُبِّبَ إليَّ مِن دُنياكُم**»[1] فدل أن حبَّه لما ذُكر من النساءِ والطيبِ اللذين هما من أمرِ دنيا غيرِه، واستعمالِه لذلك ليس لدنياه بل لآخرتِه؛ للفوائدِ التي ذكرناها في التزويجِ، وللقاءِ الملائكةِ في الطيبِ؛ ولأنه أيضًا مما يحضُّ على الجماعِ ويعينُ عليه ويحركُ أسبابَه.

وكان حبُّه لهاتين الخصلتين لأجلِ غيرِه، وقمع شهوتِه، وكان حبُّه الحقيقي المختصُ بذاته في مشاهدةِ جبروتِ مولاه ومناجاتِه، ولذلك ميَّز بين الحُبين وفَصل بين الحالين، فقال: «**وجُعِلَت قُرَّةُ عَيني في الصَّلاةِ**»[2] فقد ساوى يحيى وعيسى في كفايةِ فتنتِهن وزادَ فضيلةً بالقيامِ بهن.

وكان ﷺ ممن أُقدرَ على القوةِ في هذا، وأُعطي الكثير منه؛ ولهذا أُبيح له من عددِ الحرائرِ ما لم يُبح لغيرِه.

عن أنس أنه ﷺ كان يَدور على نسائه في الساعة من الليلِ والنهارِ وهن إحدى عشرةَ، قال أنس: وكُنَّا نَتحدَّث أنه أُعطيَ قوةَ ثلاثين رجلًا[3].

وأمَّا الجاهُ فمحمودٌ عند العُقَلاء عادة، وبقَدْر جاهِه عِظمُه في القلوبِ، وقد قال الله تعالى في صفة عيسى عليه السلام ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥]، لكن آفاته كثيرة؛ فهو مُضِرٌّ ببعض الناس لعقبى الآخرة: فلذلِك ذمَّه من ذمَّه

(١) أخرجه النسائي (٣٩٣٩).

(٢) أخرجه النسائي (٣٩٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٨)، ومسلم (٣٠٩).

ومدَح ضِدَّه، وورد في الشرع مدح الخمول وذم العُلوِّ في الأرض، وكان ﷺ قد رُزِق من الحِشمة والمكانة في القلوبِ والعظَمة قبل النبوة عند الجاهلية وبعدها وهم يُكذِّبونه، ويؤذون أصحابه، ويَقصِدون أذاه في نفسه خفية حتى إذا واجههم أعظموا أمرَه، وقضَوْا حاجته.

وقد كان يبهَتُ ويَفْرَقُ من رؤيتِه مَن لم يره، كما رُوي في حديثِ أبي مسعود أن رجلًا قام بينَ يديه فأرعَدَ فقال له: «**هوِّنْ عليك! فإني لستُ بمَلِكٍ**... الحديث»[(١)].

فأمَّا عظيمُ قدرِه بالنبوةِ، وشريفُ منزلتِه بالرسالةِ، وإنافةُ رتبتِه بالاصطفاءِ والكرامةِ في الدنيا؛ فأمرٌ هو مبلغُ النهايةِ، ثم هو في الآخرةِ سيدُ ولدِ آدمَ. وعلى معنى هذا الفصلِ نظَمْنا هذا القسمَ بأسرِه.

فصل [في الضرب الثالث]

وأمَّا الضربُ الثالث فهو ما تَختلِف الحالات في التمدُّح به، والتفاخر بسببه، والتفضيل لأجله ككثرة المال، فصاحبه على الجُملة معظَّم عند العامةِ؛ لاعتقادها توصُّله به إلى حاجاته، وتَمكُّن أغراضه بسببه، وإلَّا فليس فضيلة في نفسه.

فمتى كان المالُ بهذه الصورةِ وصاحبه مُنفقًا له في مهماته ومهمات مَن اعتراهُ وأمَّلَه، وتصريفه في مواضعِه مشتريًا به المعالي والثناءَ الحسن والمنزلة من القلوبِ؛ كان فضيلة في صاحبه عند أهل الدنيا.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢).

وإذا صرفَه في وجوهِ البرِّ، وأنفقَه في سبلِ الخير، وقصدَ بذلك اللهَ والدارَ الآخرة كان فضيلةً عند الكلِّ بكل حالٍ، ومتى كان صاحبه متمسكًا له غير موجهه وجوهه، حريصًا على جمعه عادَ كُثْرُه كالعدم، وكان منقصةً في صاحبه، ولم يقِفْ به على جدَد السلامة، بل أوقعه في هوةِ رَذيلةِ البخل، ومذمَّة النذالةِ.

فانظر سيرة نبينا ﷺ وخُلُقه في المال تَجِده قد أُوتِيَ خزائنَ الأرض ومفاتيحَ البلاد، وأحلت له الغنائم، ولم تحلَّ لنبيٍّ قبله، وفُتح عليه في حياته ﷺ بلادُ الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب وما دانى ذلك من الشامِ والعراق، وجُلبت إليه من أخماسِها وجِزيتها وصدقاتها ما لا يُجبَى للملوك إلا بعضُه، وهادَتْه جماعة من ملوكِ الأقاليم فما استأثرَ بشيء منه ولا أمسَك منه درهمًا، بل صرَفه مصارفه وأَغنَى به غيره وقوَّى به المسلمين، وقال: «**ما يَسُرُّني أنَّ لي أُحُدًا ذهبًا يبيت عِندي منه دِينارٌ إلَّا دِينار أَرصدُه لدَيْن**»[1]، ومات ودِرعُه مرهونة في نفَقة عياله[2]، واقتصر من نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعوه ضرورتُه إليه، وزهِد فيما سِواه.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٤)، ومسلم باب الترغيب في الصدقة (٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٦٧)، ومسلم (١٦٠٣).

٤- فصل [في الخصال المكتسبة]

وأمَّا الخِصالُ المكتسبةُ من الأخلاقِ الحميدة والآداب الشريفة التي اتَّفق جميعُ العقلاءِ على تفضيلِ صاحبِها، وتعظيمِ المُتَّصفِ بالخُلُقِ الواحدِ منها، فضلًا عمَّا فوقَه، وأثنى الشرعُ على جميعِها وأمَرَ بها، ووعَدَ السعادةَ الدائمةَ للمتخلِّقِ بها، ووصَفَ بعضَها بأنه مِن أجزاءِ النبوةِ، وهي المسَّاةُ بحُسن الخُلُقِ، وهو الاعتدالُ في قُوَى النفسِ وأوصافِها، والتوسطُ فيها، دونَ الميل إلى منحرفِ أطرافِها، فجميعُها قد كانت خُلُقَ نبيِّنا ﷺ على الانتهاء في كمالها، والاعتدالِ إلى غايتها، حتى أثنى الله عليه بذلك فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان خُلُقه ﷺ القرآنَ. وقال ﷺ: «**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاقِ**»[(١)]، وقال أنسٌ: كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس خُلقًا[(٢)].

وهكذا لسائرِ الأنبياءِ والمرسلين، ومَن طالَعَ سِيَرهم منذ صِباهم إلى مَبعَثهم حقَّقَ ذلك كما عُرِفَ من حال عيسى وموسى ويحيى وسليمانَ وغيرهم عليهم السلام.

وقال في حديثه ﷺ: «**لم أَهمَّ بشيءٍ ممَّا كانت الجاهلية تَفعَلُه إلَّا مرَّتَيْن فعصَمَني اللهُ منهما ثُم لم أَعُدْ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد ١٤/ ٥١٢ (٨٩٥٢)، والبزار (٨٩٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٦٥٩).

(٣) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (ص٧٩).

ثم يَتمكنُ الأمرُ لهم، وتترادفُ نفحاتُ الله تعالى عليهم، وتشرقُ أنوارُ المعارفِ في قلوبِهم، حتى يَصلوا إلى الغايةِ ويَبلغوا باصطفاءِ الله تعالى لهم بالنبوةِ في تحصيلِ هذه الخصالِ الشريفةِ النهايةَ دون ممارسةٍ ولا رياضةٍ قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤].

وقد نجِد غيرهم يطبع على بعض هذه الأخلاقِ دون جميعها ويُولَد عليها فيَسهُل عليه اكتِساب تَمامها عناية من الله تعالى كما نُشاهِد من خَلقِه بعض الصبيان على حسنِ السَّمْت أو الشهامة أو صِدق اللسان أو السماحة، وكما نجِد بعضَهم على ضِدِّها، فبالاكتِساب يَكمُل ناقصها، وبالرياضةِ والمجاهدة يُستجلَب معدومها، ويَعتدِل مُنحرِفها، وباختلافِ هذين الحالين يَتفاوَت الناس فيها، «وكلٌّ مُيسَّر لما خُلِق له»[(١)].

فصل [في الحِلم والاحتِمال والعفو مع القدرة والصبر على ما يَكره]

وأما الحِلم والاحتِمال والعفو مع القدرة والصبر على ما يَكره، وبين هذه الألقابِ فرقٌ:

فإن الحِلمَ: حالة تَوقُّر وثباتٍ عند الأسباب المحركات.

والاحتمالُ: حبس النفس عند الآلام والمؤذيات، ومثلها الصبرُ، ومعانيها متقاربة.

وأمَّا العفوُ: فهو تَركُ المؤاخذةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٥)، ومسلم (٢٦٤٧).

وهذا كله مما أدَّب الله تعالى به نبيَّه ﷺ فقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال له: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ [الشورى: ٤٣]، ولا خفاء بما يؤثر من حِلمه واحتِماله، وأن كل حَليم قد عرِفت منه زلةٌ وحفِظت عنه هفوة، وهو ﷺ لا يَزيد مع كثرةِ الأذى إلا صبرًا وعلى إسرافِ الجاهل إلَّا حلمًا.

عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا قالت: ما خُيِّر رسول الله ﷺ في أمرين قطُّ إلا اختارَ أيسَرَهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعدَ الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسِه إلا أن تُنتَهك حُرمة الله تعالى فينتقِم لله بها[(١)].

ولما قالَ له الرجلُ: اعدل؛ فإن هذه قسمةٌ ما أُريدَ بها وجهُ الله. لم يزِده في جوابِه أن بَيَّن له ما جَهِلَه ووعَظَ نفسَه وذكرها بما قالَ له، قال: «**وَيحَك، فمَن يَعدِلُ إن لَم أَعدِل؟ خِبتَ وخَسِرتَ إن لَم أَعدِل**»[(٢)] ونهى من أرادَ من أصحابِه قتله.

ومن عظيم خبَره في العفو عفوُه عن اليهوديةِ التي سمَّته في الشاةِ بعد اعترافها[(٣)] -على الصحيح من الرواية- وأنه لم يؤاخذ لَبيدَ بنَ الأعصم إذ سحَره، وقد أُعلِم به وأُوحِيَ إليه بشرحِ أمره، ولا عتبَ عليه فضلًا عن معاقبته[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٣٨)، ومسلم (١٠٦٣، ١٠٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩).

وكذلك لم يُؤاخِذ عبدَ الله بنَ أُبيٍّ وأشباهَه من المنافقين بعظيم ما نقِل عنهم في جهته قولًا وفعلًا، بل قال لمن أشارَ بقتل بعضِهم: «**لا يُتحدَّثُ أن محمَّدًا يَقتُل أَصحابَه**»[(١)].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كُنت مع النبي ﷺ وعليه بُرد غليظُ الحاشيةِ فجَبذه الأعرابيُّ بردائِه جبذةً شديدة حتى أثَّرت حاشيةُ البردِ في صفحةِ عاتقِه، ثم قال: يا محمدُ، احملْ لي على بعيريَّ هذين من مالِ الله الذي عندك؛ فإنك لا تحملُ لي من مالِك، ولا من مالِ أبيك. فسَكت النبيُّ ﷺ ثم قال: «**المالُ مالُ الله، وأنا عَبدُه**» ثم قال: «**ويُقادُ مِنك يا أعرابيُّ ما فعلتَ بي**» قال: لا، قال «**لم؟**» قال: لأنك لا تُكافئُ بالسيئةِ السيئةَ. فضحكَ النبيُّ ﷺ ثم أمرَ أن يحملَ له على بعيرٍ شعيرٌ، وعلى الآخرِ تمرٌ[(٢)].

قالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرًا من مظلمة ظُلِمَها قطُّ ما لم تكن حُرمةً من محارم الله[(٣)]، «**وما ضرَب بيده شيئًا قطُّ إلَّا أن يُجاهد في سبيل الله، وما ضرَب خادمًا قط ولا امرأة**»[(٤)].

والحديثُ عن حلمِه ﷺ وصبرِه وعفوه عند المقدرة أكثر من أن نأتي عليه، وحسبك ما ذكرناه مما في الصحيحِ والمصنفاتِ الثابتةِ إلى ما بَلغ متواترًا مَبلغَ اليقينِ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (١٠٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٤٩)، ومسلم (١٠٦٧)، من حديث أنس مختصرا، وأخرجه أبو داود (٤٧٧٥)، والنسائي (٤٧٧٦) من حديث أبي هريرة بأتم من حديث أنس.

(٣) أخرجه الحميدي في المسند (٢٦٠)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٣١٩)، وأصله في البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٤) أخرجه أحمد ٤١/ ٤٥٠ (٢٤٩٨٥)، وابن ماجه (١٩٨٤).

من صبرِه على مُقاساةِ قريشٍ وأذى الجاهليةِ ومُصابرتِه الشدائدَ الصعبةَ معهم، إلى أن أظفرَه الله عليهم وحكَّمه فيهم، وهم لا يَشُكُّون في استئصالِ شأفتِهم، وإبادةِ خَضرائِهم، فما زاد على أن عفا وصفحَ، وقال: «**ما تَقولون أني فاعلٌ بكم؟**» قالوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ، فقال: «**أقولُ كما قال أخي يوسفُ:** ﴿**لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ [يوسف: ٩٢] **اذهبوا فأنتمُ الطلقاءُ**»[1].

وقال لأبي سفيانَ -وقد سيق إليه بعد أن جلبَ إليه الأحزابَ وقتلَ عمَّه وأصحابَه ومثَّل بهم فعَفَا عنه ولاطَفَه في القول-: «**ويحَكَ يا أبا سفيانَ، ألم يأنِ لك أن تَعلمَ أن لا إله إلا الله؟**» فقال: بأبي أنت وأُمي، ما أحلمَك وأوصلَك وأكرمَك![2] وكان رسول الله ﷺ أبعدَ الناس غَضبًا وأسرعَهم رِضىً، صلى الله عليه وسلم.

فصل [في الجود والكرم والسَّخاء والسماحة]

وأما الجود والكرم والسَّخاء والسماحة ومعانيها متقاربة، وقد فرق بعضُهم بينها بفروق:

فجعَلوا الكرمَ: الإنفاقَ بطيبِ النفس فيما يعظم خطرُه ونفعُه، وسمَّوْه أيضًا: حريةً وهو ضدُّ النذالة.

---

(١) رواه البلاذري في فتوح البلدان (ص٥٠)، والطبري في التاريخ ٣/ ٦١.

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده كما في المطالب العالية ١٧/ ٤٥٩ (٤٣٠١).

والسماحة: التجافي عما يَستحقُّه المرء عند غيره بطيبِ نفسٍ وهو ضد الشَّكاسةِ.

والسخاءُ: سهولة الإنفاق وتجنب اكتساب ما لا يُحمد وهو الجودُ وهو ضد التقتير.

فكان ﷺ لا يوازى في هذه الأخلاقِ الكريمة ولا يُبارى، بهذا وصفَه كلُّ مَن عرَفَه: فعن جابر بن عبد الله قال: ما سُئِل النبي ﷺ عن شيء فقال: لا[(١)]، وقال ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: كان النبي ﷺ أجودَ الناس بالخيرِ وأجودَ ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريلُ عليه السلام أجودَ بالخيرِ من الريح المرسَلة[(٢)]، وعن أنس أن رجلًا سأله فأعطاه غنمًا بين جبلين فرجَع إلى بلده وقال: أَسلِموا فإن محمدًا يُعطي عطاء مَن لا يَخشَى فاقة[(٣)]، وأعطى غير واحِد مئةً من الإبِل، وأعطى صفوانَ مئةً ثُم مئةً ثم مئةً[(٤)]، وهذه كانت خُلُقه ﷺ قبل أن يُبعث وقد قال له ورقةُ بنُ نوفل: إنك تَحمِل الكلَّ، وتَكسِب المعدومَ[(٥)]، وردَّ على هوازِنَ سباياها وكانوا سِتَّة آلاف[(٦)]، وأَعطى العبَّاسَ من الذهَب ما لم يُطِق حَمْله[(٧)]. والخبرُ بجودِه وكرمِه ﷺ كثيرٌ.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).

(٢) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣١٢).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣١٣).

(٥) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٦) أخرجه البخاري (٢٣٠٧، ٢٣٠٨) دون ذكر العدد، والطبري في تاريخه ٣/ ٨٢، وأبو عوانة في المستخرج (٧٤٠٥) بذكر العدد.

(٧) علقه البخاري (٤٢١).

فصل [في الشجاعة والنجدة]

وأمَّا الشجاعةُ والنجدة: فالشجاعةُ فضيلةُ قوةِ الغضَب وانقيادها للعقل، والنجدة ثِقة النفسِ عند استِرسالها إلى الموت حيث يُحمَد فِعلها دون خوفٍ.

وكان ﷺ منهما بالمكان الذي لا يُجهَل، قد حضَر المواقفَ الصعبة، وفرَّ الكُماةُ[١] والأبطال عنه غير مرة وهو ثابت لا يَبرَح، ومُقبِل لا يُدبِر ولا يَتزحزح، وما شُجاعٌ إلا وقد أُحصِيت له فرَّة وحُفِظت عنه جولة سِواه.

عن أبي إسحاقَ سمِع البراء وسأله رجل: أفرَرْتم يومَ حُنين عن رسول الله ﷺ؟ قال: لكِن رسولُ الله ﷺ لم يَفرَّ، ثُم قال: لقد رأَيْته على بغلته البيضاءِ وأبو سفيانَ آخِذ بلِجامها والنبيُّ ﷺ يَقول:

«أَنا النبيُّ لا كَـــــذِبْ
أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِبْ»[٢].

وقال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنا كنا إذا حَمي البأسُ -ويُروى: اشتد البأسُ- واحمرَّت الحدقُ اتَّقينا برسولِ الله ﷺ فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدوِ منه، ولقد رأيتُني يومَ بدرٍ ونحن نلوذُ بالنبيِّ ﷺ وهو أقربُنا إلى العدوِ، وكان مِن أشد الناسِ يومئذ بأسًا[٣].

---

(١) (الكُماة): الشجعان.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦).

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٨١ (٦٥٤)، ٢/ ٣٠٧ (١٠٤٢)، ٢/ ٤٥٣ (١٣٤٧)، والنسائي في الكبرى (٨٥٨٥).

وعن أنسٍ كان النبي ﷺ أحسنَ الناسِ وأجودَ الناس وأشجعَ الناس، لقد فزِع أهل المدينة ليلةً فانطلقَ ناسٌ قِبَل الصوت، فتلقَّاهم رسول الله ﷺ راجِعًا قد سبَقهم إلى الصوت واستَبْرَأ الخبرَ على فرَس لأبي طلحةَ عُريٍ، والسيفُ في عُنقه وهو يقول: «**لَنْ تُراعوا**»(١).

فصل [في الحياء والإغضاء]

وأما الحياء والإغضاء: فالحياء: رقة تَعتري وجهَ الإنسان عند فِعل ما يُتوقَّع كراهته، أو ما يَكون تركُه خيرًا من فِعله، والإغضاءُ: التغافُل عمَّا يَكره الإنسانُ بطبيعته.

وكان النبيُّ ﷺ أشدَّ الناسِ حياءً وأكثرَهم عن العورات إغضاءً؛ قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

عن أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان رسولُ الله ﷺ أشدَّ حياء من العَذراء في خِدرها، وكان إذا كرِه شيئًا عرَفْناه في وجهه(٢).

وكان ﷺ لطيفَ البشرةِ، رقيقَ الظاهرِ، لا يُشافِهُ أحدًا بما يكرهُه؛ حياءً وكرمَ نفسٍ، وكان يكني عما اضطرَّه الكلامُ إليه ممَّا يكرهُ.

قالت عائشةُ: لم يكُنِ النبيُّ ﷺ فاحشًا ولا متفحِّشًا ولا سخَّابًا بالأسواقِ ولا يَجزي بالسيئة السيئة، ولكن يَعفو ويَصفَح(٣).

(١) أخرجه البخاري (٢٩٠٨)، ومسلم (٢٣٠٧).
(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٢)، ومسلم (٢٣٢٠).
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠١٦).

فصل [في حُسن عِشرته وأدَبه وبَسط خُلقه]

وأما حُسن عِشرته وأدَبه وبَسط خُلقه ﷺ مع أصناف الخَلْق فبحيث انتَشَرت به الأخبار الصحيحةُ.

وكان رسولُ الله ﷺ يؤلِّفُهم ولا يُنفِّرُهم، ويكرم كريمَ كلِّ قومٍ، ويوليه عليهم، ويحذرُ الناسَ ويحترسُ منهم من غيرِ أن يطويَ عن أحدٍ منهم بِشرَهُ ولا خُلقَه، يتفقدُ أصحابَه، ويُعطي كلَّ جُلسائِه نصيبَه، لا يحسبُ جليسُه أن أحدًا أكرمُ عليه منه، مَن جالسَه أو قاربَه لحاجةٍ صابرَه حتى يكونَ هو المنصرفُ عنه، ومن سألَه حاجةً لم يردَّه إلا بها أو بميسورٍ من القولِ، قد وسِع الناسَ بسطُه وخلقُه فصار لهم أبًا، وصاروا عندَه في الحقِّ سواءً.

قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وكان يَقبَل الهدية ولو كانت كُرَاعًا[(١)]، ويُكافِئ عليها.

قال أنسٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ خدَمت رسول الله ﷺ عشر سِنين فما قال لي: أُفٍّ. قطُّ، وما قال لشيء صنَعتُه: لم صنَعْتَه. ولا لشيء ترَكْتُه: لم ترَكتَه[(٢)].

---

(١) الكُرَاع: مستدق الساق من الغنم والبقر.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

وقال جرير بن عبد الله: ما حجَبني رسول الله منذ أَسلَمت، ولا رآني إلَّا تَبسَّم[(١)]، وكان يمازحُ أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويُداعبُ صِبيانهم ويُجلِسهم في حَجره، ويُجيبُ دعوةَ الحرِّ والعبدِ والأَمَة والمسكين، ويعودُ المرضَى في أقصى المدينةِ، ويَقبَل عُذر المعتذرِ.

قال أنس: ما التقَم أحدٌ أُذُنَ النبي ﷺ فينحي رأسه حتى يكون الرجُل هو الذي ينحي رأسَه، وما أخَذ أحد بيَده فيُرسِل يده حتى يُرسلها الآخرُ، ولم يُرَ مقدمًا رُكبتيه بين يدَيْ جليسٍ له[(٢)].

وكان يبدأ مَن لقِيَه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة.

يُكرِم من يدخلُ عليه وربما بسطَ له ثوبَه، ويؤثرُه بالوسادةِ التي تَحته، ويعزمُ عليه في الجلوسِ عليها، إن أبى، ويُكني أصحابَه، ويدعوهم بأحبِّ أسمائِهم تكرمةً لهم، ولا يقطعُ على أحدٍ حديثَه حتى يتجوزَ فيقطعَه بنهيٍ أو قيامٍ.

وكان أكثرَ الناسِ تبسمًا، وأطيبَهم نفسًا، ما لم ينزل عليه قرآنٌ أو يَعظ أو يَخطب.

وعن أنس كان خدَم المدينةِ يأتون النبي ﷺ إذا صلى الغَداة بآنيتهم فيها الماءُ فما يُؤتَى بآنية إلا غمَس يده فيها، وربما كان ذلك في الغَداة الباردةِ[(٣)] يريدون به التَّبرُّك.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (٢٤٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٢٤).

فصل [في الشفقة والرأفة والرحمة]

وأما الشفقةُ والرأفة والرحمةُ لجميعِ الخَلْق فقد قال الله تعالى فيه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، قال بعضهم: من فضله عليه السلام أن الله تعالى أَعطاه اسمَيْن من أسمائه فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن شفَقته على أُمَّته ﷺ تخفيفه وتسهيله عليهم، وكراهته أشياءَ مخافة أن تُفرَض عليهم كقوله: «**لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّواكِ مَعَ كُلِّ وُضوءٍ**»[(١)]، وخبَر صلاة الليل ونَهيهم عن الوِصال[(٢)].

ومن شفَقته ﷺ أن دعا ربَّه وعاهَده فقال: «**أَيُّما رَجُلٍ سَبَبْتُهُ أَوْ لَعَنْتُهُ فاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ زَكاةً وَرَحْمَةً وَصَلاةً وَطَهُورًا وَقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ بِها إِلَيْكَ يَوْمَ القِيامَةِ**»[(٣)].

ولَمَّا كذَّبه قومُه أتاه جبريلُ عليه السلام فقال له: إن الله تعالى قد سمِعَ قولَ قومِكَ لكَ وما رَدُّوا عليك، وقد أمَرَ ملَك الجبالِ لتَأمره بما شِئت فيهم. فناداه ملَك الجِبال وسلَّم عليه وقال: مُرْني بما شئتَ، وإن شئتَ أن أُطبق عليهم الأخشَبَيْن. قال النبيُّ ﷺ: «**بَلْ أَرْجو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ وَلا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد ١٦/ ٢٢ (٩٩٢٨)، وعلقه البخاري قبل الحديث (١٩٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (١١٢٩)، ومسلم (٧٦١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٦١)، ومسلم (٢٦٠١).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

وقال ابنُ مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كان رسولُ الله ﷺ يَتخوَّلنا بالموعظةِ مخافةَ السآمةِ علينا[(١)].

وعن عائِشةَ أنها ركبت بعيرًا وفيه صُعوبةٌ، فجعَلَت تُردِّده، فقال رسول الله ﷺ: «**عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ**»[(٢)].

فصل [في الوفاء وحُسْن العهد وصِلة]

وأمَّا خُلُقه ﷺ في الوفاء وحُسْن العهد وصِلة الرحِم، فعَنْ أنس كان النبي ﷺ إذا أُتِيَ بهدية قال: «**اذْهَبوا بِها إِلى بَيْتِ فُلانة؛ فإِنَّها كانَتْ صَديقةً لِخَديجة، إِنَّها كانَتْ تُحِبُّ خَديجةَ**»[(٣)].

وعن عائشةَ قالت: ما غِرْت على امرأةٍ ما غِرْت على خَديجَةَ؛ لِما كُنتُ أَسمَعه يَذكُرها، وإن كان لَيَذبَح الشاةَ فيُهدِيها إلى خَلائِلها[(٤)]، واستَأذَنَتْ عليه أختُها فارتاح إليها[(٥)].

وقال ﷺ: «**إِنَّ آلَ بَني فُلانٍ لَيْسوا لي بأَوْلياءَ، غَيْرَ أَنَّ لَهُمْ رحِمًا سَأَبُلُّها بِبَلالِها**»[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨)، ومسلم (٢٨٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٠)، ومسلم (٢٥٩٤).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٣٢)، وابن حبان ١٥/ ٤٦٧ (٧٠٠٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٠٤)، ومسلم (٢٤٣٥).

(٥) أخرج البخاري (٣٨٢١).

(٦) أخرجه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥).

وقد صلى عليه السلام بأُمامةَ ابنةِ ابنتِه زينبَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا يَحمِلها على عاتِقه، فإذا سجَد وضعَها، وإذا قام حمَلها[١].

ولما جِيء بأختِه من الرضاعةِ –الشيماءِ– في سبايا هوازِن وتعرَّفت له بسطَ لها رداءَه وقال لها: «**إن أحببتِ أقمتِ عندي مُكرمةً مُحببةً، أو مَتعتكِ ورجعتِ إلى قومكِ**» فاختارَت قومَها فمتَّعها[٢].

فصل [في تواضعه ﷺ]

وأمَّا تَواضُعه ﷺ على عُلوِّ مَنصِبه ورِفعة رُتبَتِه فكان أشدَّ الناس تواضعًا وأقَلَّهم كِبرًا، وحسبُك أنه خُيِّر بين أن يكون نبيًّا ملِكًا أو نبيًّا عبدًا فاختار أن يكون نبيًّا عبدًا[٣].

وقال: «**إِنَّما أَنا عَبْدٌ آكُلُ كَما يَأْكُلُ العَبْدُ وَأَجْلِسُ كَما يَجْلِسُ العَبْدُ**»، وكان يَركَب الحِمار ويُردِف خلفه، ويَعود المساكين، ويُجالس الفقراء، ويُجيب دعوة العبد، ويَجلس بين أصحابِه مختلطًا بهم حيثُما انتهى به المَجلِس جلَس.

وفي حديث عُمرَ عنه: «**لا تُطْروني كَما أَطْرَتِ النَّصارى ابنَ مَرْيَمَ، إِنَّما أَنا عَبْدٌ فَقولوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسولُهُ**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٦)، ومسلم (٥٤٣).
(٢) انظر سيرة ابن هشام (٢/ ٤٥٨).
(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٦٧١٠).
(٤) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

وعن أنسٍ أن امرأةً كان في عَقْلها شيءٌ جاءته فقالت: إنَّ لي إليكَ حاجةً. قال: «**اجْلِسي يا أُمَّ فُلانٍ في أَيِّ طُرُقِ المَدينةِ شِئْتِ أَجْلِسْ إِلَيْكِ حَتَّى أَقضِيَ حاجَتَكِ**» قال: فجَلَست فجلَسَ النبيُّ ﷺ إليها حتَّى فرَغَت من حاجتِها[١].

وكان يُدعَى إلى خُبز الشَّعيرِ والإِهالةِ السنِخة فيُجيب[٢]، قال: وحجَّ ﷺ على رحلٍ رثٍّ، وعليه قطيفةٌ ما تساوى أربعةَ دراهمَ فقال: «**اللهُمَّ اجعَله حَجًّا لا رياءَ فيه ولا سُمعةَ**»[٣].

ولما فُتحتَ عليه مكةُ ودخلها بجيوشِ المسلمين طأطأ على رحلِه رأسَه حتى كاد يمسُّ قادمتَه تواضعًا لله تعالى[٤].

وقد فُتِحت عليه الأرضُ وأَهدَى في حَجِّه ذلك مئة بدَنةٍ[٥].

ومن تَواضُعه ﷺ قولُه: «**لا تُفَضِّلوني على يُونُسَ بنِ مَتَّى**»[٦]. و«**لا تُفَضِّلوا بينَ الأَنبياءِ**»[٧]. و«**لا تُخَيِّروني عَلَى مُوسَى**»[٨]، و«**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْراهيمَ**»،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٦٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٨٩٠).

(٤) أخرجه الحاكم ٣/ ٤٩ (٤٣٦٥)، ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٥/ ٦٨.

(٥) أخرجه البخاري (١٧١٨).

(٦) لم أقف عليه بهذا اللفظ. وفي البخاري (٣٤١٦)، ومسلم (٢٣٧٣): «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى».

(٧) أخرجه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣).

(٨) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).

و«**لَوْ لَبِثْتُ ما لَبِثَ يُوسُفُ فِي السِّجْنِ لَأَجَبْتُ الداعِيَ**»[(١)]. وقال للذي قال له: يا خيرَ البَرِيَّةِ: «**ذلكَ إِبْراهيمُ**»[(٢)].

وعن عائشةَ: كان في بيتِهِ في مِهنةِ أَهلِه يَفلي ثوبَه، ويَحلب شاتَه، ويرقعُ ثوبَه، ويَخصِف نعلَه، ويَخدم نفسَه، ويَعلف ناضِحَه، ويَقُمُّ البيت، ويَعقل البعيرَ، ويأكُل مع الخادِم، ويَعجِن معها، ويَحمِل بضاعته من السُّوق[(٣)].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن كانتِ الأَمَة من إماءِ أهل المدينة لتَأخُذ بيَدِ رسول الله ﷺ فتَنطلِق به حيثُ شاءت حتى يَقضِيَ حاجتها[(٤)].

فصل [في عدله ﷺ وأمانته وعِفَّته وصِدق لَهْجته]

وأمَّا عدلُه ﷺ وأمانته وعِفَّته وصِدق لَهْجته، فكان ﷺ آمَنَ الناس، وأعدلَ الناس، وأعفَّ الناس، وأصدَقَهم لَهْجة منذ كان، اعتَرَف له بذلك مُحادُّوه وعِداه. وكان يُسمَّى قبل نبوَّته: الأمينَ.

وسأل هرقلُ عنه أبا سفيانَ فقال: هل كُنتم تَتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا[(٥)].

وقال في الصحيحِ: «**وَيْحكَ! فمَن يعدلُ إن لم أعدِلْ؟! خِبْت وخسِرْت إن لم أعدِلْ**»[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٣٦٩).
(٣) أخرج بعضه مفرقا أحمد ٤١/ ٢٦٩ (٢٤٧٤٩)، ٤٣/ ٢٦٣ (٢٦١٩٤)، والبخاري (٦٧٦).
(٤) علقه البخاري (٦٠٧٢).
(٥) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).
(٦) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

فصل [في وقاره ﷺ وصمته وتُؤَدته ومروؤته وحسن هديه]

وأما وقارُه ﷺ وصمتُه وتُؤَدتُه ومروؤتُه وحسنُ هديه، فكان كثيرَ السكوتِ لا يتكلمُ في غيرِ حاجةٍ، يُعرض عمن تكلمَ بغيرِ جميلٍ، وكان ضحكُه تبسمًا، وكلامُه فصلًا، لا فضولَ ولا تقصيرَ، وكان ضحكُ أصحابِه عنده التبسمَ؛ توقيرًا له واقتداءً به.

مجلسُه مجلسُ حلمٍ وحياء وخيرٍ وأمانة، لا تُرفعُ فيه الأصواتُ ولا تُؤْبَنُ فيه الحُرُمُ[(١)]، إذا تكلمَ أطرقَ جُلساؤه كأنما على رؤوسِهم الطيرَ.

وقال عبدُ الله بنُ مسعود: إن أحسنَ الهديِ هديُ محمدٍ ﷺ[(٢)].

قالت عائشةُ: كان رسول الله ﷺ يُحدِّث حديثًا لو عدَّه العادُّ أحصاه[(٣)]، وكان ﷺ يحب الطيبَ والرائحةَ الحسنةَ ويستعملُها كثيرًا ويَحض عليها، ويقول: «**حُبِّبَ إليَّ مِن دُنياكُم النساءُ والطِّيبُ، وجُعلَت قُرةُ عَيني في الصلاةِ**»[(٤)] ومن مُروءتِه ﷺ نَهيُه عن النفخِ في الطعامِ والشراب[(٥)]، والأمرُ بالأكلِ مما يلي[(٦)]، والأمرُ بالسواك[(٧)] وإنقاءُ البراجمِ والرواجبِ، واستعمالُ خصال الفطرةِ[(٨)].

(١) (ولا تُؤْبَنُ فيه الحُرُمُ):أي لا يذكر بسوء.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).

(٤) أخرجه النسائي (٣٩٣٩).

(٥) أخرجه أبو داود (٣٧٢٨)، وابن ماجه (٣٢٨٨)، والترمذي (١٨٨٨).

(٦) أخرجه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

(٧) أخرجه البخاري (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢).

(٨) أخرجه مسلم (٢٦١).

فصل [في زُهده في الدنيا]

وأمَّا زُهده في الدنيا فقد تَقدَّم من الأخبار أثناءَ هذه السيرةِ ما يَكفي، وحسبُك من تَقلُّله منها، وإعراضُه عن زَهْرتها، وقد سِيقت إليه بحذافيرها، وترادَفت عليه فُتوحُها إلى أن تُوفِّيَ ﷺ ودِرعُه مرهونةٌ عند يَهودِيٍّ في نفقة عياله[١]، وهو يَدعو ويقول: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا**»[٢].

وعن عائِشةَ قالت: ما شبِعَ رسول الله ﷺ ثلاثةَ أيام تباعًا من خُبز برٍّ حتى مضَى لسَبيلِه[٣].

وقالت عائِشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنها: ما ترَك رسولُ الله ﷺ دينارًا ولا درهمًا ولا شاةً ولا بعيرًا[٤].

وفي حديث عَمرِو بن الحارث: ما ترَك إلَّا سِلاحه وبغلته وأرضًا جعَلها صَدَقة[٥].

وقالت عائشةُ: ولقَدْ مات وما في بيتي شيء يَأكُله ذو كبِد إلَّا شطرَ شعير في رَفٍّ لي[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩١٦)، ومسلم (١٦٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٤١٦)، ومسلم (٢٩٧٠).

(٤) أخرجه مسلم (١٦٣٥).

(٥) أخرجه البخاري (٣٠٩٨).

(٦) أخرجه البخاري (٣٠٩٧)، ومسلم (٢٩٧٣).

وعنها قالت: إن كُنا آلَ محمد لنَمكُث شهرًا ما نستوقد نارًا، إن هو إلَّا التمر والماء[(١)].

وعن أنسٍ قال: ما أكَلَ رسولُ الله ﷺ على خوان ولا في سُكُرُّجَة[(٢)]، ولا خُبِزَ له مرقَّق، ولا رأى شاةً سَمِيْطًا[(٣)] قطُّ[(٤)].

وعن عائشةَ: إنما كان فِراش رسول الله ﷺ الذي ينامُ عليه أدمًا حَشوُه ليفٌ[(٥)].

وكان ﷺ ينام أحيانًا على سَرير مَرمولٍ[(٦)] بشريطٍ حتَّى يُؤثِّر في جنبه[(٧)].

فصل [في خوفه ربه وطاعته له وشِدَّة عبادته]

وأمَّا خوفُه ربَّه وطاعتُه له وشِدَّة عبادته فعلى قَدْر عِلمه بربه؛ ولذلك قال ﷺ: «**لو تَعلمونَ ما أَعلمُ لضَحكتُم قليلًا ولبكَيتُم كثيرًا**»[(٨)].

وفي حديثِ المغيرةِ: كان يُصلِّي حتى تَرِم قدماه، فقيل له: أَتَكلَّف هذا وقد غُفِر لك ما تَقدَّم من ذنبك وما تَأخَّر؟ قال: «**أَفَلا أَكونُ عَبْدًا شَكورًا**»[(٩)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٥٨)، ومسلم (٢٩٧٢).
(٢) (السُّكُرُّجَة): إناء صغير.
(٣) (السَّمِيْط): المشوي.
(٤) أخرجه البخاري (٦٤٥٧).
(٥) أخرجه الترمذي في الشمائل (٣٢٢).
(٦) (مَرمُول): مُزيَّن.
(٧) أخرجه أحمد ١٩/ ٤٠٩ (١٢٤١٧)، وابن حبان ١٤/ ٢٧٦ (٦٣٦٢).
(٨) أخرجه البخاري (٦٤٨٥).
(٩) أخرجه البخاري (٦٤٧١)، ومسلم (٢٨١٩).

وقالت عائِشةُ: كان عمَلُ رسولِ الله ﷺ دِيمةً، وأيُّكم يُطيق[1].

وقالت: كان يَصوم حتَّى نَقول: لا يُفطِر. ويُفطِر حتى نَقول: لا يَصوم[2].

وقال [أنسٌ]: كنتَ لا تشاءُ أن تراه في الليلِ مصليًا إلا رأيتَه مصليًا ولا نائما إلا رأيتَه نائمًا[3].

وقال عوفُ بنُ مالكٍ: كنتُ مع رسولِ الله ﷺ فاستاكَ، ثم توضأ، ثم قام يُصلي، فقمتُ معه، فبَدأ فاستفتحَ البقرةَ، فلا يمرُّ بآيةِ رحمةٍ إلا وقفَ فسألَ، ولا يمر بآيةِ عذابٍ إلا وقفَ فتعوذَ، ثم ركع فمكثَ بقدرِ قيامه يقولُ: «**سبحان ذي الجبروتِ والملكوتِ والكبرياءِ والعظمةِ**» ثم سجد وقال مثلَ ذلك، ثم قرأ آل عمرانَ، ثم سورةً سورةً، يفعل مثلَ ذلك[4].

وعن حذيفةَ مثلُه، وقال: سجد نحوًا من قيامِه، وجلس بين السجدتين نحوًا منه، وقام حتى قرأ البقرةَ وآلَ عمرانَ والنساءَ والمائدةَ[5].

وعن عائشةَ: قام رسولُ الله ﷺ بآيةٍ من القرآنِ ليلةً[6].

وعن عبدِ الله بن الشِّخِّيرِ: أتيتُ رسولَ الله ﷺ وهو يُصلي ولجَوفِه أزيزٌ كأزيزِ المرجلِ[7].

وقال ﷺ: «**إِنِّي لأَستَغفِرُ اللهَ فِي اليَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ**»[8].

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٨٧)، ومسلم (٧٨٣).
(٢) أخرجه البخاري (١٩٦٩)، ومسلم (١١٥٦).
(٣) أخرجه البخاري (١٩٧٢)، ومسلم (١١٥٨).
(٤) أخرجه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١١٣٢).
(٥) أخرجه مسلم (٧٧٢)، وأبو داود (٨٧٤).
(٦) أخرجه ابن ماجه (١٣٥٠)، والنسائي (١٠١٠).
(٧) أخرجه أبو داود (٩٠٤)، والنسائي (١٢١٤).
(٨) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

٥- فصل [في اجتماع صفات الكمال والتمام البشَري في جميع الأنبياء]

اعلَمْ -وفَّقَنا اللهُ وإياك- أن صِفاتِ جميع الأنبياءِ والرسل صلوات الله عليهم من كمالِ الخلق وحُسنِ الصورة، وشرفِ النسب، وحسنِ الخُلُق، وجميع المحاسن هي هذه الصفة؛ لأنها صفاتُ الكمال والتمام البشَري، والفضلُ الجميعُ لهم صلوات الله عليهم، إذ رُتْبتهم أشرفُ الرتَب، ودرجاتهم أرفعُ الدرجات، ولكن فضَّل الله بعضَهم على بعض، قال الله تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٢].

وقد قال ﷺ: «إنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ عَلى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»، ثُم قال آخِرَ الحديث: «عَلى خَلْقِ رَجُلٍ واحِدٍ عَلى صُورَةِ أَبيهِمْ آدَمَ ﷺ طُولُهُ سِتُّونَ ذِراعًا في السَّماءِ»[(١)].

وفي حديثِ أبي هُريرةَ: «رَأَيْتُ موسَى فِإذا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبٌ، رَجِلٌ، أَقْنَى، كَأَنَّهُ مِنْ رِجالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى فَإِذا هُوَ رَجُلٌ رَبْعَةٌ، كَثيرُ خِيلانِ الوَجْهِ، أَحْمَرُ، كَأَنَّما خَرَجَ مِنْ دِياسٍ[(٢)]»[(٣)].

وقال في حديثٍ آخرَ في صِفة موسى: «كَأَحْسَنِ ما أَنْتَ راءٍ مِنْ أُدْمِ الرِّجالِ»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٣٤).
(٢) (الديماس): الحمام، وقيل الكِنُّ.
(٣) أخرجه البخاري (٣٣٩٤)، ومسلم (١٦٨).
(٤) أخرجه البخاري (٥٩٠٢)، ومسلم (١٦٩).

وفي حَديث هِرقل: وسألتُكَ عن نسَبه فذكَرْت أنه فيكم ذو نسَب، وكذلك الرسُل تُبعثُ في أنساب قومِها[١].

وقال تعالى في أيوبَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةًۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ [مريم: ١٢ - ١٥]، وقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾ [آل عمران: ٣٣ - ٣٤]، وقال في نوحٍ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٦]، وقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾ [مريم: ٣٠ - ٣١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩﴾ [الأحزاب: ٦٩].

قال النبي ﷺ: «**كانَ مُوسَى رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، ما يُرَى مِنْ جَسَدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْياءً**»[٢] الحديثَ، وقال تعالى عنه: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١﴾ [الشعراء: ٢١]، وقال في وصف جماعة منهم: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧﴾ [الشعراء: ١٠٧]، وقال: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩).

[القصص: ٢٦]، وقال: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام: ٨٤ - ٩٠]، فوصَفَهم بأوصاف جَمَّة من الصلاح والهُدى والاجتِباء والحُكم والنبوة، وقال: ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ ﴾ عليم و﴿حَلِيمٖ ﴾ [الصافات: ١٠١]، وقال: ﴿ ۞وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٨﴾ ﴾ [الدخان: ١٧ - ١٨]، وقال: ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وقال في إسماعيلَ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾ ﴾ [مريم: ٥٤ - ٥٥]، وقال في موسى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا ﴾ [مريم: ٥١]، وفي سليمانَ: ﴿ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]، وقال: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [ص: ٤٥ - ٤٨]، وفي داود: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾ [ص: ١٧]، ثُم قال: ﴿ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص: ٢٠]، وقال عن يوسف: ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف: ٥٥]، وفي

موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٦٩]، وقال تعالى عن شعيبٍ عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]، وقال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، وقال: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤] وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

في آيٍّ كثيرة، ذكَر فيها من خِصالهم ومحاسِن أخلاقهم الدالَّة على كمالهم، وجاء من ذلك في الأحاديث كثير كقوله: «**إنَّما الكَريمُ ابنُ الكَريم ابنِ الكَريم ابنِ الكَريم: يُوسُفُ بنُ يَعقوبَ بنِ إِسْحاقَ بنِ إبراهيمَ، نبيٌّ ابنُ نبيٍّ ابنِ نبيٍّ ابنِ نبيٍّ**»(١).

وفي حديث أنسٍ: «**وَكَذَلِكَ الْأَنْبِياءُ تَنامُ أَعْيُنُهُمْ وَلا تَنامُ قُلوبُهُمْ**»(٢).

وروى أبو هُريرةَ، عنه ﷺ: «**خُفِّفَ عَلى داوُدَ القُرآنُ، فَكانَ يَأْمُرُ بِدوابِّه فَتُسْرَجُ، فَيَقْرَأُ القُرْآنَ قبلَ أن تُسْرَجَ، وَلا يَأْكُلُ إلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»(٣).

وقال ﷺ: «**أَحَبُّ الصَّلاةِ إلى الله صَلاةُ داوُدَ، وَأَحَبُّ الصِّيامِ إلى الله صِيامُ داوُدَ، كانَ يَنامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقومُ ثُلُثَهُ، وَيَنامُ سُدُسَهُ، وَيَصومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٩٠، ٤٦٨٩).
(٢) أخرجه البخاري (٣٥٧٠)
(٣) أخرجه البخاري (٣٤١٧).
(٤) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

الباب الثالث: فيما ورَدَ من صَحيح الأخبار ومَشهورها بعظيم قَدْره عِند رَبِّه ومَنزِلته وما خَصَّه به في الدارَيْن من كَرامته عليه السلام

لا خِلافَ أنه أَكرَم البشَر، وسَيِّد ولَد آدَمَ، وأفضَلُ الخلقِ عندَ الله، وأَعلاهُم درجةً، وأَقرَبُهم زلفَى.

واعلَمْ أن الأحاديث الواردةَ في ذلك كثيرة جدًّا، وقد اقتَصَرْنا منها على صحيحها ومُنتَشِرِها .

١- فصل فيما ورَد من ذِكر مكانته عند ربه عز وجل والاصطِفاءِ ورِفعة الذِّكْر والتفضيل، وسِيادة ولَد آدمَ وما خصَّه به في الدنيا من مزايا الرتَب

وعن واثِلةَ بنِ الأسقعِ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ الله اصطفى مِن ولدِ إبراهيمَ إسماعيلَ، واصطفى مِن ولدِ إسماعيلَ بني كِنانةَ، واصطفى من بني كِنانةَ قُريشًا، واصطفى من قريشٍ بني هاشمَ، واصطفاني من بني هاشمٍ**»(١).

وعن أنسٍ أنَّ النبي ﷺ أُتِيَ بالبراقِ ليلةَ أُسري به فاستَصعبَ عليه؛ فقال له جبريلُ: بمحمدٍ تفعلُ هذا؟ فما رَكبك أحدٌ أكرمُ على الله منه، فارفَضَّ عرقًا(٢).

روَى عنه أبو هريرةَ وجابرُ بن عبدِ الله أنه ﷺ قال: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا** - وفي بعضها: **سِتًّا** - **لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسيرةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهورًا، وَأَيُّما رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنائِمُ، ولَمْ تَحِلَّ لنَبِيٍّ قَبْلِي، وبُعِثْتُ إِلى الناسِ كافَّةً، وَأُعْطِيتُ الشَّفاعةَ**»(٣).

وفي الحديثِ الآخرِ عن أبي هريرةَ: «**نُصرتُ بالرعبِ، وأوتيتُ جوامعَ الكلمِ، وبينا أنا نائمٌ إذ جيءَ بمفاتيحِ خزائنِ الأرضِ فوُضعَت في يَدي**»(٤).

وفي رواية: «**وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ**».

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٣١).

(٣) حديث أبي هريرة: أخرجه مسلم (٥٢٣)، والبخاري (٢٩٧٧) بنحوه. وحديث جابر: أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٤) أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣).

وعن عُقبةَ بنِ عامِرٍ أنه قال: قال ﷺ: «**إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ وَأنا شَهيدٌ علَيْكُم، وإنِّي واللهِ لَأَنْظُرُ إلى حَوْضي الآنَ، وإنِّي قَدْ أُعطِيتُ مَفاتيحَ خَزائِنِ الأَرْضِ، وإنِّي واللهِ ما أَخافُ عَلَيْكُم أن تُشرِكوا بَعْدي، ولَكِنِّي أَخافُ علَيْكم أن تَنافَسوا فيها**»[1].

وعن أبي هُريرةَ، عنه ﷺ: «**ما مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبياءِ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآياتِ ما مِثْلُهُ آمَنَ علَيْه البَشَرُ، وَإِنَّما كانَ الَّذي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحى اللهُ إِلَيَّ، فأَرْجو أَنْ أَكونَ أَكْثَرَهُمْ تابِعًا يومَ القِيامَةِ**»[2].

معنى هذا عند المُحقِّقين: بقاءُ مُعجِزاته ما بقِيَت الدنيا، وسائِر مُعجِزات الأنبياء ذهَبت للحين، ولم يُشاهِدها إلَّا الحاضِرُ لها، ومُعجِزة القرآن يَقِف عليها قَرْن بعد قَرْن عيانًا لا خبرًا إلى يوم القِيامة.

وقال ﷺ: «**إنَّ اللهَ قَدْ حَبَسَ عَنْ مكَّةَ الفيلَ وَسَلَّطَ علَيْها رَسولَه والمُؤمِنينَ، وَإِنَّها لم تَحِلَّ لِأَحَدٍ بَعْدي، وَإِنَّما أُحِلَّتْ لي ساعَةً مِنْ نَهارٍ**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (٢٢٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (١١٢)،، ومسلم (١٣٥٥).

٢- فصل في تَفضيله بما تَضمَّنته كرامة الإسراءِ من المناجاةِ والرؤية وإمامة الأنبياءِ والعروج به إلى سِدرة المنتهى، وما رأى من آيات رَبِّه الكبرى

ومن خَصائِصه ﷺ قصةُ الإسراءِ، وما انطوَت عليه من درَجات الرِّفعة مما نبَّه عليه الكتاب العزيزُ وشرَحَتْه صحاح الأخبارُ، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١ - ١٨].

فلا خِلافَ بين المسلمين في صِحَّة الإسراء به ﷺ إذ هو نصُّ القُرآن وجاءت بتفصيله وشَرْح عجائبِه وخواصِّ نبيِّنا محمد ﷺ فيه أحاديثُ كثيرةٌ مُنتشِرة رأَيْنا أن نُقدِّم أكملَها.

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسولَ الله ﷺ قال: «**أُتِيتُ بِالبُراقِ، وَهُوَ دابَّةٌ أَبيضُ طَويلٌ فَوقَ الحِمارِ ودونَ البَغْلِ، يَضَعُ حافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهى طَرْفِهِ**»، قال: «**فَرَكِبْتُهُ حتَّى أَتيتُ بيتَ المَقدِس فرَبَطْتُه بالحَلقة الَّتي يَربِط بها الأَنبياءُ، ثُم دخَلْتُ المَسجِدَ فصَلَّيْتُ فيه ركعتَيْن، ثُم خرَجْت فجاءَني جِبريلُ بإناءٍ من خَمْرٍ، وإناءٍ من لبَن فاخترْتُ اللبَنَ، فقال جبريلُ: اخترْتَ الفِطرةَ. ثُم عُرِجَ بِنا إلى السَّماءِ فاسْتَفْتَحَ**

جَبريلُ فقيل: مَن أنتَ؟ قال: جِبريلُ. قيل: ومَنْ مَعَكَ؟ قال: مُحَمَّدٌ. قيل: وقَدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟ قال: قد بعُثِ إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بآدَمَ ﷺ فرحَّب بي ودعا لي بخَيْر، ثُم عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ الثانيةِ، فاستَفْتَحَ جَبريلُ، فقيل: مَن أنتَ؟ قال: جَبريلُ. قيل: ومَنْ معكَ؟ قال: مُحَمَّد. قيل: وقَدْ بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إلَيْه. ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بابْنَي الخالةِ عِيسى ابنِ مَريمَ ويَحيَى بن زكريَّا صلى الله عليهما فرحَّبا بي ودعَوَا لي بخَيْر، ثُم عَرَج بنا إلى السماءِ الثالِثةِ» فذكَر مثلَ الأوَّل «ففُتِحَ لَنا فإذا أنا بيُوسُفَ ﷺ وإذا هو قد أُعطِيَ شَطرَ الحُسنِ، فرحَّب بي ودعا لي بخَيْر، ثُم عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ الرابِعةِ» وذكَر مِثلَه «فإذا أَنا بإِدريسَ فرحَّب بي ودَعا لي بخَيْر، قال اللهُ تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: ٥٧]، ثُم عَرَجَ بنا إلى السماء الخامِسة» فذكَر مثلَه «فإذا أنا بهارونَ فرحَّبَ بي ودعا لي بخَيْر، ثُم عَرَجَ بنا إلى السَّماء السادِسةِ» فذكر مثله «فإِذا أنا بمُوسَى فرحَّبَ بي ودَعا لي بخَيْرٍ ثُم عَرَجَ بِنا إلى السَّماءِ السابِعةِ» فذكَر مِثلَه «فإذا أَنا بإبراهيمَ مُسنِدًا ظَهْرَه إلى البيتِ المَعمورِ، وإذا هو يَدخُله كلَّ يوم سَبْعونَ أَلْفَ ملَكٍ لا يَعودون إليه، ثُم ذَهبَ بي إلى سِدرةِ المُنتَهى، وإذا وَرَقُها كآذانِ الفِيَلةِ، وإذا ثَمَرُها كالقِلالِ، قال فلمَّا غشِيَها من أَمْرِ الله ما غشَّى تغيَّرَت؛ فما أحَدٌ من خَلْق الله يَستطيع أن يَنعتَها من حُسْنها، فأَوْحى اللهُ إليَّ ما أَوحَى، ففرَضَ عليَّ خمسينَ صَلاةً في كلِّ يومٍ وليلةٍ، فنزَلْت إلى مُوسى فقال: ما فَرَضَ ربكَ على أُمَّتك؟ قُلتُ: خمسينَ صلاة. قال: ارجِعْ إلى ربِّكَ فاسأَلْه التخفيفَ؛ فإن أُمَّتكَ لا يُطيقون ذلك، فإنِّي قد بلَوْت بني إسرائيلَ وخبَرْتهم».

قال: «فرَجَعْتُ إلى رَبِّي فقُلْت: يا ربِّ خَفِّفْ عَن أُمَّتي. فحطَّ عَنِّي خَمسًا فرَجَعْت إلى مُوسى فقلتُ: حطَّ عنِّي خمسًا. قال: إنَّ أُمَّتَكَ لا يُطيقونَ ذلِكَ؛ فارْجِعْ إلى ربك

فاسْأَلْه التخفيفَ» قال: «فلَمْ أَزَلْ أَرجِع بين ربي تعالى وبين موسَى حتَّى قال: يا مُحمَّد إنَّهُنَّ خمسُ صلَواتٍ كلَّ يومٍ وليلةٍ لكلِّ صَلاةٍ عشرٌ، فتِلكَ خَمسونَ صَلاةً، ومَن هَمَّ بحسَنة فلَمْ يَعمَلها كُتِبَت له حسَنة، فإن عمِلها كُتِبت له عشرًا، ومَن هَمَّ بسَيِّئة فلَمْ يَعمَلها لم تُكتَبْ شيئًا، فإن عمِلَها كُتِبَت سيِّئة واحِدة». قال: «فنَزَلْتُ حتَّى انتَهَيْت إلى موسى فأَخبَرْته فقال: ارجِعْ إلى ربِّكَ فاسأَلْه التَّخفيفَ». قال رسول الله ﷺ: «فقُلْتُ: قَدْ رجَعْت إلى رَبِّي حتَّى استَحْيَيْتُ مِنه»[1].

فصل [في اختلاف السلف في حقيقة الإسراء]

ثُم اختَلَف السلَفُ والعلماءُ: هل كان أسري برُوحه أو جسَده على ثلاث مَقالات:

فذهَبَت طائفةٌ: إلى أنه إسراء بالروحِ، وأنه رُؤيا مَنام مع اتِّفاقهم أن رُؤيا الأنبياء حقٌّ ووحيٌ، وإلى هذا ذهَب معاويةُ[2]، وحُكِيَ عن الحسَن[3]، والمشهورُ عنه خِلافُه، وإليه أَشارُ محمدُ بنُ إسحاقَ[4]، وحُجَّتُهم قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

وذهَب مُعظَم السلَف والمُسلِمين: إلى أنه إسراءٌ بالجسَد وفي اليَقَظة، وهذا هو الحقُّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٤٤٥.

(٣) انظر تفسير الطبري ١٤/ ٤٤٦.

(٤) السيرة النبوية (ص١٠٤).

وقالت طائِفةٌ: كان الإسراءُ بالجسَد يَقظةً من المسجد الحرام إلى بيت المَقدِس، وإلى السماء بالروح، واحتَجُّوا بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، فجعَل ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] غايةَ الإسراءِ الَّذي وقَع التَّعجُّب فيه بعَظيم القُدرة والتَّمدُّح بتشريف النبيِّ محمَّد ﷺ به وإظهار الكَرامة له بالإسراء إليه، قال هؤلاء: ولو كان الإسراءُ بجسَده إلى زائِدٍ على المسجِد الأقصى لذكَره فيَكون أبلغَ في المدحِ.

والحقُّ من هذا والصحيحُ -إن شاء الله-: أنه إسراء بالجسد والروحِ في القصة كلها، وعليه تَدُلُّ الآية وصحيحُ الأخبارِ والاعتبار، ولا يُعدَل عن الظاهر والحقيقةِ إلى التأويل إلَّا عند الاستِحالة، وليس في الإسراء بجسَده وحال يَقَظته استحالةٌ، إذ لو كان منامًا لقال: برُوح عَبده. ولم يقل: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم: ١٧]، ولو كان منامًا لما كانت فيه آيةٌ ولا مُعجِزة، ولما استَبْعَده الكُفَّار ولا كذَّبوه فيه، ولا ارتَدَّ به ضُعَفاءُ مَن أسلَمَ وافتَتَنوا به، إذ مِثْل هذا من المناماتِ لا يُنكَر، بل لم يَكُن ذلك منهم إلَّا وقد علِموا أن خبَرَه إنما كان عن جِسمه وحال يَقَظته، إلى ما ذُكِر في الحديث من ذِكْر صَلاته بالأنبياءِ ببيت المَقدِس في رواية أنسٍ أو في السَّماء على ما روَى غيرُه، وذكر مجَيء جِبريلَ له بالبُراق، وخبَرَ المعراج، واستِفتاح السماء فيُقال: ومَن معَكَ؟ فيقول: مُحمَّد. ولِقائِه بالأنبياءِ فيها وخبَرِهم معه وترحيبِهم به، وشأنِه في فرض الصلاةِ ومراجعتِه مع موسى في ذلك.

وفي بعض هذه الأخبارِ: «**فأخَذَ** -يَعنِي: جبريل- **بيَدي فعرج بي إلى السماء**» إلى قوله: «**ثُم عَرَجَ بي حتى ظهَرْت بمُستوًى أَسمَع فيه صَريفَ الأقلام**»(١). وأنه وصَل إلى سِدرة المُنتهى، وأنه دخَل الجَنة ورأَى فيها ما ذكَره، قال ابنُ عباس: هي رُؤيا عَينٍ رآها النبي ﷺ لا رُؤيا مَنام(٢).

وعن أبي هريرة: «**لَقَدْ رَأَيْتُني في الحِجْر، وقُريشٌ تَسأَلني عن مَسْراي، فسَأَلَتْني عَنْ أَشْياءَ لم أُثْبِتْها، فكُرِبْتُ كَرْبًا ما كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، فرَفَعَهُ اللهُ لي أَنظُرُ إلَيْهِ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٢).

٣- فصل في ذِكْر تفضيلِه ﷺ في القِيامة بخُصوص الكَرامة

عن أبي هريرةَ عنه ﷺ: «أَنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيامةِ، وأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ القَبْرُ، وأَوَّلُ شافِعٍ وأوَّلُ مُشَفَّعٍ»[(١)].

وعن أنس: «أَنا أوَّلُ الناسِ يُشَفَّعُ في الجَنَّةِ، وَأَنا أَكْثَرُ الناسِ تَبَعًا»[(٢)]، وعنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «أَنا سَيِّدُ الناسِ يَوْمَ القِيامةِ وَتَدْرونَ بِمَ ذلِكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ الأوَّلينَ وَالآخِرينَ»[(٣)]. وذكَر حَديث الشفاعةِ.

قوله: «أَنا سَيِّدُ الناسِ يَوْمَ القِيامةِ»، هو سيِّدُهم في الدنيا ويومَ القِيامة، ولكن أَشار ﷺ لانفِراده فيه بالسُّؤدَد والشفاعة دون غيرِه إذ لجَأَ الناس إليه في ذلك فلم يَجِدوا سِواه، والسيِّد هو الذي يَلجأ الناس إليه في حوائِجهم، فكان حينَئذٍ سيِّدًا منفردًا بين البشر لم يُزاحِمه أحدٌ في ذلك ولا ادَّعاه كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، والمُلْك له تعالى في الدنيا والآخِرة، لكِن في الآخرة انقَطَعت دعوَى المُدَّعي لذلك في الدنيا، وكذلك لجَأ إلى مُحمَّد ﷺ جميعُ الناس في الشفاعةِ، فكان سيِّدَهم في الأُخرى دون دَعوَى.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «آتِي بابَ الجَنَّةِ يومَ القِيامةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقولُ الخازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقولُ: مُحَمَّدٌ. فيَقولُ: بِكَ أُمِرْتُ لا أَفتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ»(١).

وعن عبدِ الله بنِ عَمرٍو قال: قال رَسولُ الله ﷺ: «حَوْضِي مَسيرةَ شَهْرٍ، وَزَواياهُ سَواءٌ، وَماؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وكِيزانُهُ كَنُجومِ السَّماءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢).

٤- فصل في تَفضيله بالمحبَّة والخلَّة

جاءت بذلك الأخبار الصحيحةُ، فعن أبي سَعيدٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَليلًا غَيْرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبا بَكْرٍ**»(١).

وفي حديثٍ آخرَ: «**وَإِنَّ صاحِبَكُمْ خَليلُ اللهِ**»(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٤)، ومسلم (٢٣٨٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٣).

٥- فصل في تَفضيلِه بالشفاعة والمَقام المَحْمود

قال اللهُ تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

عن ابنِ عمرَ قال: إن الناس يَصيرون يوم القيامة جثًا كلُّ أمَّة تَتبَع نبيَّها يقولون: يا فُلان، اشفَعْ لنا، يا فُلانُ، اشفَعْ لنا. حتى تنتهيَ الشفاعة إلى النبيِّ ﷺ، فذَلِكَ يومَ يَبعَثُه اللهُ المَقامَ المَحْمودَ[(١)].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنه ﷺ: «**خُيِّرْتُ بَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتي الجَنَّةَ وَبَيْنَ الشَّفاعةِ فَاخْتَرْتُ الشَّفاعةَ؛ لِأَنَّها أَعَمُّ، أَتَرَوْنَها للمُتَّقِينَ؟ لا، ولكِنَّها للمُذْنِبِينَ الخَطَّائِينَ**»[(٢)].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قُلتُ: يا رسول الله ماذا ورَد عليكَ في الشفاعة؟ فقال: «**شَفاعَتي لِمَنْ شَهِدَ أَن لا إلهَ إلَّا اللهُ مُخلِصًا يُصَدِّقُ لِسانَهُ قَلْبُهُ**»[(٣)].

وقال جابرُ بن عبد الله ليزيدَ الفقيرِ: سمِعت بمَقام محمد؟ يَعنِي: الذي يَبعَثه الله فيه قال: نعَمْ. قال: فإنه مَقام محمد المَحمود الذي يُخرِج الله به مَن يُخرِج. يَعنِي: من النار، وذكر حَديث الشفاعةِ في إخراج الجَهنَّميِّين[(٤)].

وفي روايةِ أنسٍ وأبي هريرةَ وغيرِهما -دخَلَ حديثُ بعضِهم على بعضٍ- قال ﷺ: «**يَجْمَعُ اللهُ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ يومَ القِيامةِ فيَهْتَمُّونَ** -أو قال: **فيُلْهَمونَ**-

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٣١١).

(٣) أخرجه أحمد ١٦/ ٤١٧ (١٠٧١٣).

(٤) أخرجه مسلم (١٩١).

فيَقولونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنا إِلى رَبِّنا»[(١)]، ومِن طريقٍ آخرَ: «ماجَ الناس بعضُهم في بعض»[(٢)]، وعن أبي هريرة[(٣)]: «وتَدنو الشمسُ؛ فيبلغُ الناسَ من الغمِّ ما لا يُطيقون، ولا يَحتَمِلون فيَقولون: أَلا تَنْظُرونَ مَن يَشفَع لكم؟!

فيَأْتون آدَمَ فيَقولون: أنتَ آدَمُ أبو البشَرِ، خلَقَكَ اللهُ بيَدِه، ونفَخَ فيكَ من رُوحِه، وأَسكَنَكَ جَنَّتَه، وأَسجَد لكَ مَلائِكتَه، وعلَّمَكَ أسماءَ كلِّ شيءٍ، اشفَعْ لَنا عِندَ ربِّكَ حتى يُريحَنا من مَكانِنا، أَلا تَرَى ما نحنُ فيه؟! فيَقول: إن رَبِّي غضِب اليومَ غضبًا لم يَغضَبْ قبلَه مثلَه ولا يَغضَب بعدَه مِثلَه، نَهاني عن الشجَرةِ فعَصَيْت، نَفْسي نَفْسي، اذْهَبوا إلى غيري، اذهَبوا إلى نوحٍ.

فيَأتونَ نوحًا فيَقولون: أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إلى أَهْلِ الأرضِ، وسَمَّاكَ اللهُ عبدًا شَكورًا، أَلا تَرَى ما نحنُ فيه؟! أَلا تَرَى ما بلَغنا؟! أَلا تَشفَعُ لَنا إلى ربِّكَ؟! فيَقولُ: إن رَبِّي غضِبَ اليومَ غضَبًا لم يَغضَبْ قبلَه مِثلَه ولا يَغضَب بَعْدَه مِثلَه، نَفْسي نَفْسِي -قال في روايةِ أنسٍ: ويذكرُ خطيئتَه التي أصابَ: سؤالَه ربَّه بغير علمٍ[(٤)]- وَقَدْ كانت لي دَعوةٌ دعَوْتها على قَوْمي، اذهَبوا إلى غَيْري، اذهَبوا إلى إبراهيمَ فإنه خَليلُ الله.

فيَأتون إبراهيمَ فيَقولون: أنتَ نبيُّ الله وخليلُه من أَهْلِ الأرضِ، اشفَعْ لَنا إلى ربِّكَ، أَلَا تَرى ما نحنُ فيه؟! فيَقول: إنَّ رَبِّي قد غضِبَ اليَوْمَ غضَبًا»، وذكر مثلَه،

(١) أخرجه مسلم (١٩٣) من حديث أنس.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاري (٧٤٤٠) من حديث أنس.

ويَذكُر ثلاث كلِماتٍ كذَبَهن «نَفْسي نَفْسي، لَستُ لَهَا، ولكِنْ علَيْكم بمُوسى فإنه كَليمُ الله[(١)] - وفي روايةٍ: فإنه عبدٌ آتاه الله التوراةَ وكلَّمه وقرَّبه نَجِيًّا[(٢)]-.

فَيَأْتون موسى فيَقولُ: لَسْتُ لَهَا، ويَذكُر خَطيئتَه التي أصابَ وقَتْلَه النفس، ويقول: نَفسي نفسي، ولَكِنْ علَيْكم بعيسى فإنه رُوحُ الله وكلِمَتُه. فيَأتون عيسَى فيَقولُ: لَسْتُ لها، ولكِنْ علَيْكُم بمُحمَّدٍ عَبْدٍ غفَرَ اللهُ له ما تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبه وما تَأخَّرَ. فأُوتَى فأَقول: أَنا لها فأَنطَلِقُ فأَسْتأذِنُ على رَبِّي، فيُؤذَن لي فإذا رأَيْتُه وقَعْتُ ساجِدًا[(٣)] - وفي رواية: فآتي تحتَ العرشِ فأخِرُّ ساجدًا[(٤)]. وفي روايةٍ: فأقومُ بينَ يديه فأحمَدُه بمحامدَ لا أقدرُ عليها إلا أنه يُلهِمنيها الله[(٥)]. وفي رِواية: فيَفتَح اللهُ عليَّ من مَحامِده وحُسْن الثَّناء عليه شيئًا لم يَفتَحْه على أحَدٍ قَبْلي[(٦)]- فيُقالُ: يا محمدُ ارفَعْ رأسَكَ، سَلْ تُعطَه، واشفَعْ تُشفَّعْ. فأَرفَع رأسي فأَقول: يا رَبِّ أُمَّتي، يا ربِّ أُمَّتي. فيَقول: أَدخِلْ من أُمَّتكَ مَن لا حِسابَ عليه منَ البابِ الأيمنِ من أبواب الجَنَّة، وهُم شُرَكاءُ الناس فيما سِوى ذلك منَ الأَبوابِ»[(٧)].

ولم يُذكر في روايةِ أنسٍ هذا الفضل، وقال مكانَه: «ثم أخِرُّ ساجدًا فيقالُ لي: يا محمدُ، ارفع رأسَك، وقل يُسمع لك ، واشفع تُشفع، وسَل تُعطه، فأقولُ: يا ربِّ، أمتي أمتي، فيقال: انطلِق، فمَن كان في قلبِه مثقالُ حبةٍ من بُرةٍ أو شَعيرةٍ من إيمانٍ؛ فأخرجه فأنطلِق، فأفعلُ، ثم أرجِعُ إلى ربي فأحمَدَه بتلك المحامدِ» وذكَرَ مثل

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس.
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٠) من حديث أنس.
(٣) أخرجه البخاري (٧٤٤٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس.
(٤) أخرجه مسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة.
(٥) أخرجه مسلم (١٩٣) من حديث أنس.
(٦) أخرجه البخاري (٤٧١٢) من حديث أبي هريرة.
(٧) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة.

الأولِ وقال فيه: «**مثقالُ حبةٍ من خردلٍ، قال: فأَفعلُ ثم أَرجعُ**» وذكر مثل ما تقدمَ وقال فيه: «**من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مِن مثقالِ حبةٍ مِن خردلٍ فأفعل**» وذكر في المرة الرابعة: «**فيقالُ لي ارفعْ رأسَك، وقل يُسمع، واشفعْ تشفعُ، وسل تُعطه، فأقولُ: يا ربِّ، ائذن لي فيمَن قال: لا إله إلا الله، قال: ليس ذلك إليك، ولكن وعِزتي وكبريائي وعظمَتي وجِبريائي، لأُخرجَن مِن النار مَن قال: لا إله إلا الله**» ومِن روايةِ قتادةَ عنه قال: «**فلا أدري في الثالثة أو الرابعة، فأقولُ: يا ربِّ، ما بقيَ في النارِ إلا مَن حبسَه القرآنُ**» أي: مَن وجبَ عليه الخلودُ.

فقدِ اجتمَع مِن اختِلاف ألفاظ هذه الآثارِ أن شفاعتَه ﷺ ومَقامه المحمودَ من أوَّل الشفاعات إلى آخِرها من حين يَجتمِع الناس للحَشْر وتَضيق بهم الحناجِر، ويَبلُغ منهم العرَقُ والشمس والوقوفُ مبلَغه، وذلك قبلَ الحِساب، فيَشفَع حينئذ لإراحة الناس من المَوقِف، ثُم يُوضَع الصراطُ ويُحاسَب الناس، فيَشفَع في تَعجيل مَن لا حِسابَ عليه من أُمَّته إلى الجنة، ثم يَشفَع فيمَن وجَب عليه العذابُ ودخل النار مِنهم حسبَما تَقتَضيه الأحاديثُ الصحيحة، ثُم فيمَن قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ. وليس هذا لِسواهُ ﷺ، وفي الحديثِ المُنتشِر الصحيحِ: «**لِكُلِّ نبيٍّ دَعوةٌ يَدْعو بها، واختبَأْتُ دَعْوتي شَفاعةً لأُمَّتي يومَ القِيامةِ**»[(١)].

فتكون هذه الدعوةُ المذكورة مَخصوصةً بالأُمَّة مَضمونة الإجابة، وإلَّا فقَدْ أَخبَرَ ﷺ أنه سأَل لأُمَّته أشياءَ من أمورِ الدين والدنيا فأُعطِيَ بعضَها ومُنِعَ بعضها، وادَّخر لهم هذه الدعوةَ ليومِ الفاقة، وخاتمة المِحَن، وعَظيم السؤال والرغبة: جَزاهُ اللهُ أحسنَ ما جَزَى نبيًّا عن أُمَّته وﷺ كَثيرًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٨).

٦- فصل في تفضيله في الجنةِ بالوسيلةِ، والدرجةِ الرفيعةِ، والكوثرِ، والفضيلةِ

عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقولُ: «**إذا سمعتُم المؤذنَ فقولوا مثلَ ما يقولُ، ثم صَلوا علي؛ فإنه مَن صلى علي مرةً صلى الله عليه عشرا، ثم سَلوا الله لي الوسيلةَ، فإنها منزلةٌ في الجنةِ لا تَنبغي إلا لعبدٍ من عبادِ الله، وأرجو أن أكونَ أنا هو، فمَن سأَلَ الله لي الوسيلةَ حلَّت عليه الشفاعةُ**»[(١)].

وفي حديثٍ آخر عن أبي هريرةَ: الوسيلةُ: أعلى درجةٍ في الجنةِ[(٢)].

وعن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**بَينا أنا أسيرُ في الجنةِ إذ عرضَ لي نهرٌ حافَّتاه قبابُ اللؤلؤِ، قلتُ لجبريلَ: ما هذا؟ قال: هذا الكوثرُ الذي أعطاكَه الله. قال: ثم ضربَ بيدِه إلى طينِه فاستخرجَ مسكًا**»[(٣)].

وعن عائشةَ[(٤)] وعبدِ الله بنِ عُمر مثلِه، قال: «**ومجراهُ على الدرِ والياقوتِ، وماؤُه أحلى مِن العسلِ، وأبيضُ من الثلجِ**»[(٥)].

وفي روايةٍ عنه: «**فإذا هو يَجري، ولم يشقَّ شقًا، عليه حوضٌ تَردُ عليه أُمتي**» وذَكر حديثَ الحوضِ[(٦)].

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦١٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٨١)، والترمذي (٣٣٦٠) واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٦٥).

(٥) أخرجه الترمذي (٣٣٦١)، وابن ماجه (٤٣٣٤).

(٦) أخرجه أحمد ٢١/ ٢٠٠ (١٣٥٧٨).

٧- فصل [في تأويل نهيه ﷺ عن التفضيل]

فإن قلتَ: إذا تقررَ من دليلِ القرآنِ، وصحيح الأثرِ، وإجماعِ الأمةِ، كونُه أكرمَ البشرِ، وأفضلَ الأنبياءِ، فما معنى الأحاديثِ الواردةِ بنهيِه عن التفضيلِ كقولِه: «**ما يَنبغي لِعبدٍ أن يَقولَ: أنا خيرٌ من يونسَ بنِ متَّى**»[(١)].

وفي حديثِ أبي هريرةَ في اليهوديِّ الذي قال: والذي اصطَفى موسى على البشرِ؛ فلطمَه رجلٌ من الأنصارِ، وقال: تقولُ ذلك ورسولُ الله ﷺ بين أظهرِنا، فبلغَ ذلك النبيُّ ﷺ فقالَ: «**لا تُفضِّلوا بين الأنبياءِ**»[(٢)].

فاعلَم، أن للعلماءِ في هذه الأحاديثِ تأويلاتٍ:

أحدُها: أن نهيَه عن التفضيلِ كان قبلَ أن يعلمَ أنه سيدُ ولدِ آدمَ فنهى عن التفضيلِ إذ يحتاجُ إلى توقيفٍ، وأن مَن فضَّل بلا علمٍ فقد كذبَ.

الوجهُ الثاني: أنه قاله ﷺ على طريقِ التواضعِ ونفيِ التكبرِ والعجبِ، وهذا لا يَسلمُ من الاعتراضِ.

الوجهُ الثالثُ: ألا يفضلَ بينهم تَفضيلًا يؤدي إلى تنقصِ بعضِهم أو الغضِّ منه لا سيما في جهةِ يونسَ عليه السلام إذ أخبرَ الله عنه بما أخبرَ؛ لئلا يقع في نفسِ مَن لا يعلمُ منه بذلك غضاضةٌ وانحطاطٌ مِن رُتبتِه الرفيعةِ، إذ قال تعالى عنه: ﴿إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠﴾ [الصافات: ١٤٠] ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فربما يُخيلُ لِمَن لا علمَ عنده حطيطتُه بذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٩٥)، ومسلم (٢٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١٢، ٣٤١٤) ومسلم (٢٣٧٤).

الوجه الرابعُ: منعُ التفضيلِ في حق النبوةِ والرسالةِ، فإن الأنبياءَ فيها على حدٍ واحدٍ إذ هي شئٌ واحدٌ لا يتفاضلُ، وإنما التفاضلُ في زيادةِ الأحوالِ والخصوصِ والكراماتِ والرتبِ والألطافِ، وأما النبوةُ في نفسِها فلا تَتفاضلُ، وإنما التفاضلُ بأمورٍ أُخر زائدةٍ عليها؛ ولذلك منهم رُسل، ومنهم أولو عزمٍ من الرسلِ، ومنهم مَن رُفع مكانًا عليًا، ومنهم من أوتي الحكمَ صبيًا، وأوتي بعضُهم الزُّبر، وبعضُهم البيناتِ، ومنهم مَن كلمَ الله ورفع بعضَهم درجاتٍ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۢ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥] وقال: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾ الآية [البقرة: ٢٥٣].

قال بعضُ أهل العلمِ: والتفضيلُ المرادُ لهم هنا في الدنيا، وذلك بثلاثةِ أحوالٍ: أن تكونَ آياتُه ومعجزاتُه أبهرَ وأشهرَ، أو تكونَ أمتُه أزكى وأكثرَ، أو يكونَ في ذاتِه أفضلَ وأطهرَ، وفضلُه في ذاته راجعٌ إلى ما خصَّه الله به من كرامتِه واختصاصِه من كلامٍ، أو خلة، أو رؤيةٍ، أو ما شاء الله من ألطافِه، وتحفِ ولايته، واختصاصِه.

٨- فصل في أسمائه عليه السلام وما تَضمَّنته من تفضيلِه

قال رسول الله ﷺ: «**لي خَمْسةُ أسماءٍ: أنا مُحمَّد، وأنا أَحمدُ، وأنا الماحي الَّذي يَمحو اللهُ بي الكُفْرَ، وأنا الحاشرُ الذي يُحشَر الناسُ على قدَمي، وأنا العاقِبُ**»[(١)]، وقد سمَّاه الله تعالى في كتابِه: محمدًا وأحمدَ.

فمن خصائصِه تعالى له أن ضمَّن أسماءَه ثناءَه وطوَى أثناء ذكرِه عظيمَ شكرِه، فأما اسمُه **أحمدُ** فأَفعَل مبالغة من صِفة الحمد، **ومُحمَّد** مُفعَّل مبالَغة من كثرة الحمد، فهو ﷺ أجلُّ مَن حَمَد، وأفضَلُ مَن حُمِد وأكثرُ الناس حَمْدًا، فهو أحمدُ المحمودين، وأحمدُ الحامِدين، ومعه لواءُ الحمد يومَ القِيامة، وليَتِمَّ له كمالُ الحمد.

ويتشهرُ في تلك العرصاتِ بصفةِ الحمدِ، ويبعثُه ربهُ هناك مقامًا محمودًا كما وعدَه يحمدُه فيه الأولون والآخرون بشفاعتِه لهم، ويُفتَحُ عليه فيه من المحامدِ كما قال ﷺ ما لم يعط غيرُه.

ثم في الاسمينِ من عجائبِ خصائصِه، وبدائعِ آياته فنٌّ آخرُ، هو أن الله جل اسمُه حمى أن يُمسى بهما أحدٌ قبل زمانِه، وأما أحمدُ الذي أتى في الكتبِ وبشرت به الأنبياءُ فمنعَ الله تعالى بحكمتِه أن يُسمى به أحدٌ غيرُه، ولا يُدعى به مَدعوٌّ قبلَه؛ حتى لا يدخلَ لبسٌ على ضعيفِ القلبِ أو شك، وكذلك محمدٌ أيضا، لم يُسم به أحدٌ من العربِ ولا غيرِهم إلى أن شاعَ قُبيلَ وجودِه ﷺ وميلادِه أن نبيًّا يُبعثُ اسمُه محمد فسَمى قومٌ قليلٌ من العربِ أبناءَهم بذلك رجاءَ أن يكونَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤).

أحدُهم هو، والله أعلم حيث يجعلُ رسالاتِه، وهم: محمدُ بنُ أحيحة بنِ الجلاحِ الأوسيُّ، ومحمدُ بنُ مسلمةَ الأنصاريُّ، ومحمدُ بنُ براء البكريُّ، ومحمدُ بنُ سفيانَ بنِ مجاشعٍ، ومحمدُ بنُ حمرانَ الجعفي، ومحمدُ بنُ خزاعي السلمي لا سابعَ لهم.

ثم حمى الله كل من تَسمَّى به أن يَدعي النبوةَ أو يدعيها أحدٌ له، أو يظهرَ عليه سبب يشككُ أحدًا في أمرِه حتى تحققَت السمتان له ﷺ، ولم ينازَع فيهما.

وأما قولُه ﷺ: «**وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفرَ**» ففسرَ في الحديثِ، ويكونُ محو الكفرِ إما من مكةَ وبلادِ العربِ وما زُوي له من الأرضِ ووعدَ أنه يبلغُه ملك أمتِه، أو يكونُ المحو عامًّا بمعنى الظهورِ والغلبةِ كما قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقولُه: «**وأنا الحاشرُ الذي يُحشر الناسُ على قَدمي**» أي: على زماني وعَهدي أي: ليس بعدي نبيٌّ كما قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وسُميَ عاقبًا؛ لأنه عقبَ عليه السلام غيرَه من الأنبياءِ، وفي الصحيحِ: «**أنا العاقبُ الذي ليس بعدي نبيٌّ**».

وقيل: معني «**على قدمي**»: أي: يُحشر الناسُ بمشاهدَتي كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقيلَ: «**على قدمي**»: على سابقَتي، قال الله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]. وقيلَ: «**على قدمي**»: أي: قُدامي وحَولي أي: يَجتمعون إليَّ يومَ القيامةِ. وقيل: «**على قدمي**» على سُنتي.

ومعني قولِه: «**لي خمسةُ أسماءٍ**» قيل: إنها موجودةٌ في الكتبِ المتقدمةِ وعند أولي العلمِ من الأممِ السالفةِ، والله أعلم.

وفي حديث أبي موسى الأشعريِّ أنه كان ﷺ يُسمِّي لنا نفسَه أسماءً فيَقول: «**أنا مُحمَّد، وأحمدُ، والمُقفِّي، والحاشرُ، ونبيُّ التوبةِ، ونبيُّ المَلحَمةِ**»(١).

ومعنى «**المقفِّي**»: معنى «**العاقب**»، وأمَّا نبيُّ الرحمة والتَّوْبة والمَرحَمة والراحة فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وكما وصَفه بأنه يُزكيهم، ويُعلِّمهم الكتاب والحِكمة، ويَهديهم إلى صِراط مُستقيم، وبالمؤمنين رؤفٌ رحيمٌ. وقد قال في صِفة أُمَّته: «**إِنَّها أُمَّة مَرحومةٌ**»(٢)، وأمَرَها ﷺ بالتراحُم، وأَثنى عليه فقال: «**إنَّ اللهَ يُحِبُّ مِن عِبادِهِ الرُّحماءَ**»(٣)، وقال: «**الراحِمونَ يَرحَمُهم الرحمنُ، ارْحَموا مَنْ في الأَرضِ يَرْحَمْكُم مَن في السماءِ**»(٤)، وأمَّا روايةُ نبيِّ الملحمةِ فإشارةٌ إلى ما بُعِث به من القتالِ والسيفِ ﷺ، وهي صحيحة.

وقد جاءت مِن ألقابِه ﷺ وسماتِه في القرآنِ عِدَّةٌ كثيرةٌ سوى ما ذكرناه كالنورِ، والسراجِ المنيرِ، والمنذرِ، والنذيرِ، والمبشرِ، والبشيرِ، والشاهدِ، والشهيدِ، والحقِ المبين، وخاتمِ النبيينِ، والرؤوفِ الرحيم، والأمينِ، وقدمِ الصدق، ورحمةِ العالمين، ونعمةِ الله، والعروةِ الوثقى، والصراطِ المستقيم، والنجمِ الثاقبِ، والكريمِ، والنبيِ الأمي، وداعيِ الله، في أوصافٍ كثيرةٍ وسماتٍ جليلةٍ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٥٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٤٨)، ومسلم (٩٢٣) بنحوه.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤).

٩- فصل في تَشريف الله تعالى بما سَمَّاه به من أسمائه الحُسنى ووَصَفه به من صِفاته العُلى(١)

فاعلَمْ أن الله تعالى خصَّ كثيرًا من أنبيائه بكرامة خلَعها عليهم من أسمائه كتَسمية إسحاقَ وإسماعيلَ بعَليم وحَليم، وإبراهيمَ بحَليم، ونوحٍ بشَكور، وعيسى ويَحيَى ببَرٍّ وموسى بكَريمٍ وقوِيٍّ، ويوسُفَ بحفيظٍ عليمٍ، وأيوبَ بصابِرٍ، وإسماعيلَ بصادِق الوعدِ كما نطَق بذلك الكتابُ العزيز من مواضعِ ذِكْرهم صلوات الله وسلامه على جميعهم، وفضَّل محمدًا نبيَّنا ﷺ بأن حلَّاه منها في كِتابه العزيزِ وعلى أَلْسنة أنبيائه بعِدة كثيرةٍ اجتَمَع لنا منها جُملة بعد إعمال الفِكْر وإحضار الذِّكْر إذ لم نَجِد مَن جمَع منها فوقَ اسمَيْن.

فمن أَسمائِه تعالى: **الرؤف الرحيم**، وهما بمَعنًى مُتقارِب، وسمَّاه في كتابه بذلك فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن أسمائه تعالى: **الحقُّ المبينُ**، ومَعنَى الحق: الموجود والمُتحقِّق أَمرُه، وكذلك المُبين أيِ: البيِّنُ أمرُه وإلهيتُه. وسمَّى النبيَّ ﷺ بذلك في كِتابه فقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ

---

(١) يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « سمَّى الله نفسه بأسماء وسمّى صفاته بأسماء، فكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه لا يشركه فيها غيره، وسمّى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة إليهم توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص، ولم يلزم من اتفاق الاسمين تماثل مسماهما واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص... فقد سمَّى نفسه سميعا بصيرا، وسمى بعض خلقه سميعا بصيرا فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، وليس السميع كالسميع، ولا البصير كالبصير [التدمرية ٢١-٢٣].

ﵟٱلۡمُبِينُ ٨٩ﵞ [الحجر: ٨٩]، وقال تعالى: ﵟقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡﵞ [يونس: ١٠٨]، وقال تعالى: ﵟفَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡﵞ [الأنعام: ٥]، قيل: محمد. وقيل: القرآن. ومَعناه هاهنا ضدُّ الباطل، والمتحقق صِدقه وأَمره، وهو بمعنى الأول.

ومن أسمائه تعالى: الشهيدُ، ومعناه: العالم، وقيل: الشاهد على عِباده يوم القِيامة، وسمَّاه **شهيدًا وشاهدًا** فقال: ﵟإِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ﵞ [الفتح: ٨]، وقال: ﵟوَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاﵞ [البقرة: ١٤٣] وهو بمَعنى الأوَّل.

ومِن أسمائِه تعالى: الكريمُ، ومعناه: الكثيرُ الخيرِ. وقيل: المفضلُ. وقيل: العفوُّ. وقيل: العليُّ.

وسَماه تعالى كريمًا بقولِه: ﵟإِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ﵞ [الحاقة: ٤٠] قيلَ: محمدٌ. وقيلَ: جبريلُ.

ومعاني الاسم صحيحةٌ في حقهِ ﷺ.

ومن أسمائِه تعالى: العظيمُ، ومعناه: الجليلُ الشأنِ، الذي كلُّ شيء دونه، وقال في النبيِّ ﷺ: ﵟوَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ﵞ [القلم: ٤].

ومِن أسمائِه تعالى في الحديثِ: «**الشكورُ**»(١) ومعناه المثيبُ على العملِ القليلِ. وقيل: المثني على المطيعين، ووصَفَ بذلك نبيَّه نوحًا عليه السلام فقالَ: ﵟإِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗاﵞ [الإسراء: ٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٧)، وابن ماجه (٣٨٦١) في حديث سرد الأسماء المشهور.

وقد وَصفَ النبيُّ ﷺ بذلك نفسَه فقال: «**أفلا أكونُ عبدًا شكورًا**»(١) أي: معترفًا بنعمِ ربي، عارفًا بقدرِ ذلك، مثنيًا عليه، مجهدًا نفسي في الزيادةِ من ذلك، لقولِه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومن أسمائِه تعالى: **القويُّ وذو القوة المَتين**، وقد وصَفَه اللهُ تعالى بذلك فقال: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾ [التكوير: ٢٠]، قيل: محمد. وقيل: جبريل.

ومن أسمائِه تعالى: الوليُّ والمولى، ومعناهما: الناصرُ، وقد قالَ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقال ﷺ: «**أنا وليُّ كلِّ مُؤمنٍ**»(٢) وقال الله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

ومن أسمائِه تعالى: العفو، ومعناه: الصفوحُ، وقد وصف الله تعالى بهذا نبيَّه في القرآن وفي التوراةِ، وأمرَه بالعفو فقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣].

ومن أسمائه تعالى: العزيزُ، ومعناه: الممتنعُ الغالب، أو الذي لا نظيرَ له، أو المعزُّ لغيره، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: ٨] أي: الامتناعُ وجلالةُ القدر، وقد وصف الله تعالى نفسَه بالبشارةِ والنذارةِ فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١] وقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] و﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥] وسماه الله تعالى مبشرًا، ونذيرًا، وبشيرًا، أي: مبشرًا لأهل طاعته، ونذيرًا لأهل معصيتِه.

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠).
(٢) أخرجه البخاري (٢٢٩٨)، ومسلم (١٦١٩) بمعناه.

الباب الرابعُ: فيما أظهَرَه الله تعالى على يديه من المُعجِزات وشرَفه به من الخَصائص والكَرامات

حسب المُتأمِّل أن يحقق أن كتابنا هذا لم نَجمَعه لمُنكِرِ نُبوَّة نبيِّنا ﷺ ولا لطاعِن في مُعجِزاته؛ فنَحتاج إلى نَصْب البراهين عليها، وتَحصين حَوْزتها حتى لا يَتوصَّلَ المُطاعِن إليها، ونذكر شُروط المعجز والتحدِّي وحدَه، وفَساد قول مَن أَبطَل نَسْخ الشرائع ورَدَّه، بل أَلَّفْناه لأهل مِلَّته المُلبِّين لدعوته المصدِّقين لنبوته؛ ليكون تأكيدًا في محبتهم له، ومَنماةً لأعمالهم؛ وليَزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، ونيَّتُنا أن نُثبِت في هذا البابِ أمَّهات مُعجِزاته ومشاهيرَ آياته؛ لتَدُلَّ على عظيم قدرِه عند ربه، وأتينا منها بالمُحقَّق والصحيح الإسناد، وأكثرُه مما بلغ القطع أو كاد وأَضَفْنا إليها بعض ما وقع في مشاهير كُتب الأئمة.

وإذا تأمل المُتأمِّل المُنصِف ما قدَّمناه من جميل أَثَره، وحميد سيره، وبراعة عِلْمه، ورجاحة عقله، وحلمه، وجملة كماله، وجميعِ خصاله، وشاهد حاله، وصواب مقاله لم يَمترِ في صحة نُبوته، وصِدق دعوته، وقد كَفَى هذا غيرَ واحِد في إسلامه والإيمان به.

فعن عبدِ الله بن سلَام قال: لَمَّا قدِم رسول الله ﷺ المدينةَ جئتُه لأنظر إليه، فلَمَّا استَبَنْتُ وجهَه عرَفْت أن وجهَه ليس بوجهِ كذَّاب[(١)].

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤).

وروى مسلم وغيره أن ضمادًا لمَّا وفَد عليه فقال له النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الحَمدَ لله، نَحمَدُه ونَستَعينُه، مَن يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأَشهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه**»، قال له: أعِدْ عليَّ كلماتِك هؤلاءِ؛ فلَقَدْ بلغن قاموسَ البَحْر، هاتِ يدَكَ أبايِعْكَ[1].

(١) أخرجه مسلم (٨٦٨).

١ - فصل [في أن المُعجِز مع التحدِّي من النبيِّ ﷺ قائِم مَقام قول الله: صَدَقَ عبدي]

اعلَمْ أن اللهَ جل اسمُه قادِر على خَلق المعرفة في قلوبِ عباده والعلمِ بذاته وأسمائه وصفاته وجميعِ تَكليفاته ابتِداءً دون واسِطة لو شاء، كما حُكِيَ عن سُنته في بعض الأنبياء، وذَكَره بعضُ أهل التفسير في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ [الشورى: ٥١]، وجائز أن يوصل إليهم جميع ذلك بواسِطة تُبلِّغهم كلامَه، وتكون تلكَ الواسِطةُ إمَّا من غير البشَر كالملائِكة مع الأنبياء، أو من جِنْسهم كالأنبياءِ مع الأُمَم ولا مانعَ لهذا من دليلِ العقلِ، وإذا جاز هذا ولم يَستَحِل وجاءت الرسلُ بما دلَّ على صِدْقهم من مُعجِزاتهم؛ وجَبَ تَصديقُهم في جميع ما أَتَوْا به؛ لأن المُعجِز مع التحدِّي من النبيِّ ﷺ قائِم مَقام قول الله: صَدَقَ عبدي، فأَطيعوه واتَّبِعوه. وشاهد على صِدقه فيما يَقوله وهذا كافٍ.

٢- [فصل في معنى النبي والرسول]

واختلَف العلماء: هل النبيُّ والرسولُ بمعنًى أو بمعنَيَيْن؟ فقيل: هما سَواءٌ، وأصلُه من الإنباء وهو الإعلام، واستدَلُّوا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]، فقد أَثبَت لهما معًا الإرسالَ، قال: ولا يكون النبيُّ إلا رسولًا، ولا الرسول إلا نبيًّا. وقيل: هما مُفترِقان من وجهٍ إذ قد اجتَمَعا في النبوَّة التي هي الاطِّلاع على الغَيْب والإعلام بخواصِّ النبوة أو الرفعة؛ لمعرفة ذلك، وحوز درجتها، وافتَرَقا في زيادة الرسالة للرسولِ، وهو الأمر بالإنذارِ والإعلامِ.

وقد ذهَب بعضُهم إلى أن الرسولَ مَن جاء بشَرْع مبتدأ، ومَن لم يَأتِ به نبيٌّ غير رسولٍ وإن أَمر بالإبلاغ والإنذارِ.

والصحيح والذي عليه الجَمَّاءُ الغفيرُ أن كلَّ رسول نبيٌّ، وليس كل نبيٍّ رسولًا، وأوَّل الرسُل آدمُ، وآخرُهم محمدٌ ﷺ.

وأمَّا الوحيُ فأصلُه الإسراع، فلمَّا كان النبيُّ يَتلقَّى ما يأتيه من ربه بعجَل سُمِّيَ وحيًا، وسمِّيت أنواع الإلهاماتِ وحيًا تشبهًا بالوحي إلى النبي، وسمِّيَ الخطُّ وحيًا لسرعة حركة يدِ كاتِبه، ووحيُ الحاجب واللَّحْظ سرعةُ إشارَتِها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم: ١١]، أي: أَوْمَأَ ورمَز، وقيل: كتَبَ. ومنه قولهم: الوَحا الوَحا. أي: السرعة السرعة، وقيل: أصل الوحيِ السرُّ والإخفاء. ومنه سُمِّيَ الإلهامُ وحيًا، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أي: يُوسوِسون في صدورهم، ومنه قوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧]، أي: أُلْقِيَ في قلبها، وقد قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ [الشورى: ٥١]، أي: ما يُلقيه في قلبه دونَ واسِطة.

٣- فصل [في معنى المعجزة وضروبها وأقسامها]

اعلَمْ أن معنَى تسميتنا ما جاءت به الأنبياءُ معجزةً هو أن الخلقَ عجَزوا عن الإتيان بمِثلها، وهي على ضربَيْن:

- ضربٍ هو من نوع قُدرة البشَر فعجَزوا عنه، فتَعجيزُهم عنه فِعل الله دلَّ على صِدق نبيِّه كصَرْفهم عن تمنِّي الموت، وتَعجيزهم عن الإتيان بمثل القُرآن على رأيِ بعضِهم ونحوه.
- وضربٍ هو خارج عن قُدرتهم فلم يَقدِروا على الإتيان بمِثله كإحياء الموتى، وقَلْب العصا حيَّةً، وإخراج ناقة من صَخْرة، وكلام شجَرة، ونَبْع الماء من الأصابع، وانشِقاق القمَر، ممَّا لا يمكن أن يفعلَه أحدٌ إلا الله، فكون ذلك على يدِ النبي ﷺ من فِعْل الله تعالى وتَحدِّيه مَن يُكذِّبه أن يأتيَ بمِثله تعجيز له.

واعلَمْ أن المعجزاتِ التي ظهرت على يد نبيِّنا ﷺ ودلائلَ نبوته وبراهينَ صِدقه من هذين النوعين معًا، وهو أكثرُ الرسل مُعجِزةً، وأبهرُهم آيةً، وأظهرُهم برهانًا كما سنُبيِّنه، وهي في كَثْرتها لا يحيط بها ضَبْط، فإن واحِدًا منها وهو القُرآن لا يُحصى عدَد مُعجِزاته بأَلْف ولا ألفين ولا أكثَرَ؛ لأن النبيَّ ﷺ قد تَحدَّى بسورة منه فعُجِز عنها.

ثم مُعجزاته ﷺ على قسمَيْن:

قِسم منها عُلِم قطعًا، ونُقِل إلينا، مُتواتر كالقُرآن فلا مِريةَ ولا خِلاف بمَجيء النبيِّ به، وظهوره من قِبَله، واستِدلاله بحُجته وإن أَنكَر هذا معانِد جاحِد فهو كإنكاره وجودَ محمَّد ﷺ في الدنيا.

والقِسم الثاني: ما لم يَبلُغ مبلَغ الضرورة والقَطْع، وهو على نوعين:

- نوع مُشتهِر مُنتشِر رواه العددُ، وشاع الخبر به عند المُحدِّثين والرواة ونقَلة السِّيَر والأخبار، كنَبْع الماء من بين الأصابع، وتَكثير الطعام.
- ونوع منه اختَصَّ به الواحِد أو الاثنان، ورواه العدَدُ اليسيرُ، ولم يَشتهِر اشتهارَ غيره، لكنه إذا جُمِع إلى مِثلِه اتَّفَقا في المعنى، واجتَمَعا على الإتيان بالمعجِز كما قدَّمناه.

وأنا أَقول صدعًا بالحقِّ: إن كثيرًا من هذه الآياتِ المأثورة عنه ﷺ معلومة بالقَطْع؛ أما انشِقاق القمَر فالقرآن نصَّ بوُقوعه، وأَخبر عن وُجوده، ولا يُعدَل عن ظاهِره إلَّا بدليل، وجاء برفع احتمالِه صحيحُ الأخبار من طرُق كثيرةٍ، ولا يُوهِن عزمنا خِلافُ أخرقَ مُنحلِّ عُرى الدِّين، ولا يُلتَفت إلى سَخافة مُبتدِع يُلقِي الشكَّ على قلوب ضعفاءِ المؤمنين، بل نُرغِم بهذا أنفَه، وننبذ بالعَراءِ سُخفَه، وكذلك قِصَّة نبعِ الماء وتَكثير الطعامِ رواها الثِّقات والعددُ الكثير عن الجمَّاء الغفيرِ عن العدَد الكثير من الصحابةِ.

وكذلك إخبارُه عن الغيوبِ وإنباؤُه بما يَكون وكان، معلوم من آياته على الجُملة بالضَّرورة.

٤- فصل في إعجاز القرآن

اعلَمْ -وفَّقنا الله وإياك- أن كتاب الله العزيز منطوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبطِ أنواعِها في أربعة وجوه:

أوَّلها: حُسن تأليفه والتِئام كلِمِه وفصاحتُه ووجوهُ إيجازه وبلاغتِه الخارقة عادة العربِ، وذلك أنهم كانوا أربابَ هذا الشأنِ، منهم البدوي ذو اللفظِ الجَزْل والقول الفصل والكلام الفخمِ والطبعِ الجوهري والمنزعِ القوي، ومنهم الحضريُّ ذو البلاغةِ البارعة، والألفاظِ الناصعةِ، والكلمات الجامعةِ، والطبع السهلِ، والتصرفِ في القول القليل الكلفةِ، الكثير الرونقِ، الرقيق الحاشيةِ، وكِلا البابين فلهما في البلاغةِ الحجة البالغة، والقوة الدامغةُ، والقدح الفالجُ، والمهيَع الناهجُ، لا يشكون أن الكلامَ طوعُ مرادِهم، والبلاغة ملك قيادِهم، قد حووا فنونها، واستنبطوا عيونَها، ودخلوا من كل بابٍ من أبوابها، وعلَوْا صرحًا لبلوغِ أسبابها، فقالوا في الخطيرِ والمهين، وتفنَّنوا في الغثِّ والسمين، وتقاولوا في القُلِّ والكُثرِ، وتساجَلوا في النظم والنثرِ، فما راعهم إلا رسولٌ كريم بكتابٍ عزيزٍ، لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفِه، تنزيلٌ من حكيم حَميد، أُحكِمت آياته، وفصِّلت كلماته، وبهَرَت بلاغته العقولَ، وظهرت فصاحتُه على كل مَقول.

وذكر أبو عبيدٍ أن أعرابيًّا سمِع رجلًا يقرأ: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤ ﴾ [الحجر: ٩٤] فسجَد وقال: سجَدْت لفصاحته.

وسمِع آخرُ رجُلًا يَقرأ: ﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا ﴾ [يوسف: ٨٠] فقال: أشهَد أن مخلوقًا لا يَقدِر على مثل هذا الكلام.

وحكى الأصمعيُّ أنه سمِع كلام جاريةٍ فقال لها: قاتَلكِ الله، ما أفصحَكِ؟! فقالت: أَوَيُعدُّ هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص: ٧]، فجمَع في آية واحِدة بين أمرين ونَهْيَيْن وخبَرين وبِشارتَيْن[1]، فهذا نوع من إعجازه مُنفرِد بذاته غير مضافٍ إلى غيره على التحقيق والصحيح من القولين.

وأنت إذا تأمَّلت قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [سبأ: ٥١]، وقوله: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقوله: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود: ٤٤]، وقوله: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت: ٤٠] وأشباهها منَ الآيِ، بل أكثر القرآن حققت ما بيَّنته من إيجاز ألفاظها، وكثرة معانيها، وديباجة عبارتها، وحُسن تأليف حروفها، وتَلاؤُم كلِمها.

الوجه الثاني من إعجازه: صورة نَظْمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها، الذي جاء عليه ووقَفَتْ مقاطعُ آيِهِ، وانتهت فواصل كلمات إليه، ولم يوجد قبلَه ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحَدٌ مماثلةَ شيء منه، بل حارت فيه عقولُهم، وتذَهَّلت دونه أحلامُهم.

---

(١) انظر: تفسير الماوردي ٤/ ٢٣٦.

ولَمَّا سمِع كلامَه ﷺ الوليدُ بنُ المغيرة وقرأ عليه القرآن رقَّ، فجاءه أبو جَهْل منكِرًا عليه قال: والله ما منكم أحدٌ أعلمُ بالأشعار منِّي، والله ما يُشبِهِ الذي يَقول شيئًا من هذا[1].

وفي خبَرِه الآخَر حين جمع قريشًا عند حُضور الموسِم وقال: إن وفود العرَب تَرِد، فأَجمِعوا فيه رأيًا لا يُكذِّب بعضُكم بعضًا. فقالوا: نقول: كاهِن. قال: والله ما هو بكاهِنٍ، ما هو بزَمْزَمته ولا سَجْعه. قالوا: مجنونٌ. قال: ما هو بمَجنون ولا بخَنقِه ولا وَسْوسته. قالوا: فنقول: شاعِر. قال: ما هو بشاعِر، قد عرَفْنا الشِّعر كله؛ رجَزَه وهزَجَه وقَريضه ومَبْسوطه ومَقْبوضه، ما هو بشاعر. قالوا: فنقول: ساحِر. قال: ما هو بساحِر ولا نَفثِه ولا عَقْده. قالوا: فما نَقول؟ قال: ما أنتُم بقائلين من هذا شيئًا إلَّا وأنا أعرِف أنه باطلٌ، وإن أقربَ القول أنه ساحِر، فإنه سِحْر يُفرِّق به بين المرء وأبيه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجه، والمرء وعَشيرته. فتَفرَّقوا وجلَسوا على السبُل يُحذِّرون الناس، فأَنزَل الله تعالى في الوليد: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المدثر: ١١، ٢٤][2].

والإعجازُ بكل واحد من النوعين الإيجاز والبلاغة بذاتها، أو الأسلوب الغريب بذاته، كل واحِد منهما نوع إعجاز على التحقيق لم تَقدِر العرب على الإتيان بواحِدٍ منهما.

---

(١) أخرجه الحاكم ٢/ ٥٥٠ (٣٨٧٢).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (ص١٥١).

الوجه الثالث من الإعجاز: ما انطَوى عليه من الأخبار بالمُغيَّبات، وما لم يَكن ولم يَقع، فوُجِد كما ورَد وعلى الوجه الذي أَخبَرَ كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣]، وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]، وقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١ - ٣]، فكان جميعُ هذا كما قال؛ فغلَبت الرومُ فارسَ في بِضْع سِنين، ودخَل الناسُ في الإسلام أفواجًا فما مات عليه السلام وفي بلاد العرب كلِّها موضِع لم يَدخُله الإسلام.

منه قوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥]، وقوله: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة: ١٤]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣]، وقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران: ١١١]، فكان كل ذلك، وما فيه من كشفِ أسرار المنافقين واليهودِ ومقالهم وكذِبهم في حلِفهم وتَقريعهم بذلك كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]، وقوله: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ

ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦]، وقد قال مُبديًا ما قدَّره الله واعتَقَده المؤمنون يومَ بدر: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: ٧]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾ [الحجر: ٩٥]، ولمَّا نزَلت بشَّر النبي ﷺ بذلك أصحابَه بأن الله كَفاه إيَّاهم، وكان المُستهزِئون نفرًا بمكة يُنفِّرون الناس عنه ويُؤذونه فهَلكوا.

الوجه الرابع: ما أَنبأ به من أخبار القرون السالِفة والأمم البائِدة والشرائع الداثِرة ممَّا كان لا يعلم منه القِصة الواحدة إلَّا الفذ من أَحبار أهل الكتابِ الذي قطَع عُمره في تَعلُّم ذلك.

وقد كان أهل الكتاب كثيرًا ما يَسألونه ﷺ عن هذا فيَنزِل عليه من القرآن ما يَتلو عليهم منه ذِكْرًا كقِصص الأنبياء مع قَوْمهم، وخبَر موسى والخَضر، ويُوسُفَ وإخوتِه، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، ولُقمانَ وابنه، وأشباه ذلك من الأنباء.

هذه الوجوه الأربعة من إعجازه بيِّنة لا نزاعَ فيها، ولا مِريةَ.

ومن الوجوه البيِّنة في إعجازه من غير هذه الوجوه:

آيٌ ورَدت بتعجيز قوم في قضايا، وإعلامهم أنهم لا يَفعلونها فما فعَلوا ولا قدَروا على ذلك كقوله لليهود: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٤ - ٩٥]، قال أبو إسحاقَ الزجاجُ: في هذه الآيةِ أعظمُ حُجة وأظهرُ دَلالة على صحة الرسالةِ؛ لأنه قال: فتمنَّوُا الموت. وأَعلَمَهم أنهم لن يَتمنَّوْه أبدًا، فلم يَتمَنَّه واحد منهم(١).

وكذلك آية المُباهلة من هذا المعنَى، حيث وفد عليه أساقفةُ نجرانَ وأبَوا الإسلام فأنزل الله تعالى عليه آيةَ المباهلةِ بقوله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١] فامتَنعوا منها ورَضوا بأداء الجزيةِ، وذلك أن العاقبَ عظيمَهم قال لهم: قد علمتهم أنه نبيٌّ، وأنه ما لاعَنَ قومًا نبيٌّ قط فبقي كبيرُهم ولا صغيرُهم.

ومنها: الروعة التي تَلحَق قلوبَ سامعيه وأسماعهم عند سَماعه، والهيبة التي تَعتريهم عند تِلاوته لقوةِ حاله، وإنافةِ خطرِه، وهى على المُكذِّبين به أعظمُ، حتى كانوا يَستثقِلون سماعه، ويَزيدهم نفورًا كما قال تعالى، ويودُّون انقطاعَه؛ لكراهتهم له.

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ١٧٦.

فحُكي في الصحيح عن جُبير بن مُطعم قال: سمِعت النبي ﷺ يَقرأ في المغربِ بالطُّور، فلمَّا بلَغ هذه الآيَةَ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٧] كادَ قلبي أن يَطير[١].

وعن عُتبةَ بن ربيعةَ أنه كُلِّم النبيُّ ﷺ فيما جاء به من خِلاف قومه فتلا عليهم: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت: ١ - ١٣]، فأمسكَ عُتبةُ بيَده على في النبيِّ ﷺ وناشَدَه الرحِم أن يَكُفَّ[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٤).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (ص٢٠٦-٢٠٧).

ومن وُجوه إعجازه المعدودة: كونُه آيةً باقيةً لا تُعدَم ما بقِيَت الدنيا مع تَكفُّل الله بحِفظه فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: ٩]، وقال: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾ [فصلت: ٤٢]، وسائر مُعجِزات الأنبياء انقَضت بانقِضاء أوقاتها، فلم يَبقَ إلا خبرُها، والقرآن العزيز الباهرةُ آياتُه، الظاهِرة معجزاته، حُجتُه قاهرة، ومعارضته مُمتنِعة، والأعصارَ كلها طافِحة بأهل البيان، وحمَلة عِلم اللسان، وأئمة البلاغة وفُرسان الكلام، وجَهابذة البراعة، والمُلحِد فيهم كثير، والمعادي للشرع عتيد، فما منهم مَن أتى بشيء يُؤثر في مُعارَضته، ولا ألَّف كلمتين في مُناقضَته، ولا قدَر فيه على مَطعَن صحيح.

فصل

وقد عد جماعةٌ من الأئمة ومقلِّدي الأمة في إعجازه وجوهًا كثيرةً:

منها: أن قارئَه لا يمله، وسامعَه لا يمجه، بل الإكبابُ على تلاوته يزيده حلاوةً، وترديده يُوجب له محبةً، لا يزال غضًّا طريًّا وغيره من الكلام ولو بلغ في الحُسن والبلاغة مبلغَه يُمل مع الترديدِ، ويُعادى إذا أُعيد، وكتابنا يُستلذ به في الخلوات، ويؤنسُ بتلاوتِه في الأزمات، وسواء من الكتب لا يوجدُ فيها ذلك، حتى أحدثَ أصحابُها لها لحونًا وطرقًا يستجلبون بتلك اللحون تنشيطُهم على قراءَتها.

ومنها: جَمعُه لعلوم ومعارف لم تَعهد العربُ عامة، ولا محمدٌ ﷺ قبل نبوتِه خاصة بمعرفتِها ولا القيام بها، ولا يحيطُ بها أحدٌ من علماء الأمم، ولا يشتملُ

عليها كتاب من كتبهم، فجمع فيه من بيان علمِ الشرائعِ، والتنبيهِ على طرق الحججِ العقلياتِ، والرد على فرق الأممِ ببراهينَ قويةٍ، وأدلة بينة، سهلة الألفاظ، موجزة المقاصد، رامَ المتحذلِقون بعدُ أن يَنصبوا أدلةً مثلها فلم يَقدروا عليها، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١].

ومنها: جمعهُ فيه بين الدليل ومدلولِه، وذلك أنه احتُجَ بنظمِ القرآن، وحسنِ رصفه، وإيجازِه وبلاغتِه، وأثناء هذه البلاغةِ أمرُه ونهيُه ووعدُه ووعيدُه، فالتالي له يفهم موضعَ الحجةِ والتكليفَ معًا من كلام واحدٍ وسورة منفردةٍ.

ومنها: أن جعلَه في حيزِ المنظومِ الذي لم يُعهد ولم يكن في حيز المنثورِ؛ لأن المنظومَ أسهل على النفوس، وأوعى للقلوب، وأسمعُ في الآذان، وأحلى على الأفهام، فالناسُ إليه أميلُ، والأهواءُ إليه أسرعُ.

ومنها: تيسيرُه تعالى حفظَه لمتعلميه، وتقريبه على متحفظيه، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧] وسائرُ الأمم لا يحفظُ كتبها الواحدُ منهم، فكيف الجماء على مرور السنين عليهم، والقرآن مُيسر حفظُه للغلمان في أقرب مدةٍ.

وحقيقةُ الإعجاز: الوجوه الأربعةُ التي ذكرنا، فليُعتَمد عليها، وما بعدها من خواصِّ القرآنِ وعجائبِه التي لا تنقضي، وبالله التوفيقِ.

٥- فصل في انشِقاق القمَر

قال الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢﴾ [القمر: ١ - ٢]، أخبر تعالى بوقوع انشِقاقه بلَفظ الماضي وإعراض الكفَرة عن آياته، وأجمَع المُفسرون وأهلُ السُّنَّة على وُقوعه.

عن ابنِ مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: انشقَّ القمَرُ على عهد رَسول الله ﷺ فِرقتين: فِرقة فوقَ الجبَل، وفِرقة دونَه، فقال رسول الله ﷺ: «**اشْهَدُوا**»[1].

وعن أنَس: سأَل أهل مكةَ النبيَّ ﷺ أن يُريَهم آية، فأراهمُ انشِقاق القمَر فرقتين حتى رأَوْا حِراءَ بينهما.

وأكثر طرقِ هذه الأحاديثِ صحيحةٌ، والآية مُصرِّحة، ولا يُلتَفت إلى اعتراضِ مَخذول بأنه لو كان هذا لم يَخفَ على أهل الأرض، إذ هو شيء ظاهِر لجَميعهم، إذ لم يُنقَل لنا عن أهل الأرضِ، أنهم رصَدوه تلكَ الليلةَ فلم يَرَوْه انشقَّ، ولو نُقِل إلينا عمَّن لا يَجوز تَمالؤهم -لِكثرتهم- على الكذِب لما كانت علينا به حُجة، إذ ليس القمرُ في حدٍّ واحِد لجميع أهل الأرض، فقد يَطلُع على قوم قبل أن يَطلُع على الآخرين، وقد يَكون من قوم بضِدِّ ما هو من مُقابِليهم من أقطار الأرض، أو يَحول بين قوم وبينه سَحاب أو جِبال؛ ولهذا نجِد الكُسوفات في بعض البلاد دونَ بعض، وفي بعضِها جُزئية، وفي بعضها كُلية، وفي بعضها لا يَعرِفها إلا المُدَّعون لعِلمها، ذلك تقديرُ العزيز العَليم، وآية القمر كانت ليلًا، والعادة من الناس باللَّيْل الهدوء والسكون، وإيجافُ الأَبواب.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٦٤)، ومسلم (٢٨٠٠).

٦- فصل في نَبْع الماء من بين أصابعه وتَكثيره ببرَكته

أمَّا الأحاديث في هذا فكثيرةٌ جدًّا، روَى حديثَ نَبع الماء من أصابعه ﷺ جماعةٌ من الصحابة.

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رأيتُ رسولَ الله ﷺ وحانت صلاة العصر فالتَمَسَ الناسُ الوَضوءَ، فلم يَجِدوه، فأُتِيَ رسول الله ﷺ بوَضوء، فوضَع رسول الله ﷺ في ذلك الإناءِ يدَه، وأمَرَ الناس أن يَتوضَّؤوا منه، قال: فرأَيْت الماء يَنبُع من بين أصابعه، فتَوضَّأ الناس حتى تَوضؤوا من عند آخِرهم(١).

وأمَّا ابنُ مسعود ففي الصحيح عنه: بينما نَحن مع رسول الله ﷺ وليس معنا ماءٌ فقال لنا رسولُ الله ﷺ: «**اطلُبوا مَن معَه فَضْلُ ماءٍ**»، فأُتِيَ بماء فصبَّه في إناء ثُم وضَع كفَّه فيه، فجعَل الماء يَنبُع من بين أصابعِ رَسول الله ﷺ(٢).

وفي الصحيح عن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عطِش الناس يومَ الحُديبيَة ورسول الله ﷺ بين يديه رَكوة، فتوضَّأ منها، وأقبل الناسُ نحوه وقالوا: ليس عندنا ماءٌ إلا ما في ركوتِكَ. فوضَع النبيُّ ﷺ يَدَه في الركوة، فجعَل الماء يَفور من بين أصابعِه كأمثال العُيون، وفيه: فقُلْت: كم كُنتم. قال: لو كنا مئةَ ألفٍ لكفانا، كُنَّا خمسَ عشرةَ مئة(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٩)، ومسلم (٢٢٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤١٥٢).

ومثل هذا في هذه المواطنِ الحفلة والجموع الكثيرة لا تَتطرَّق التُّهمة إلى المُحدِّث به؛ لأنهم كانوا أسرعَ شيء إلى تَكذيبه لِما جُبِلت عليه النفوسُ من ذلك؛ ولأنهم كانوا ممَّن لا يَسكُت على باطِل، فهؤلاء قد رَوَوْا هذا، وأَشاعوه، ونسَبوا حُضور الجمَّاء الغَفير له، ولم يُنكِر أحَدٌ من الناس عليهم ما حدَّثوا به عنهم أنهم فعَلوا وشاهَدوا، فصار كتَصديق جميعهم له.

٧- فصل [تفجيرُ الماء ببرَكته وابتعاثه بمسه ودعوتِه]

ومما يُشبه هذا من مُعجزاتِه: تفجيرُ الماء ببرَكته، وابتعاثه بمسه ودعوتِه، فيما رَوى مالك في الموطأ عن معاذ بن جبلٍ في قصة غزوةِ تبوك، وأنهم وردوا العينَ وهي تبضُّ بشيء من ماء مثل الشراكِ، فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمعَ في شيء، ثم غسلَ رسولُ الله ﷺ فيه وجهَه ويديه، وأعاده فيها؛ فجرَت بماء كثيرٍ فاستقى الناسُ(١).

وفي حديث البراءِ(٢) وسلمةَ بن الأكوعِ، وحديثه أتم في قصة الحديبيةِ، وهم أربعَ عشرةَ مئة، وبئرُها لا تروي خمسين شاة، فنزحناها فلم نترك فيها قطرةً، فقعد رسولُ الله ﷺ على جباها، قال البراءُ: وأُتِيَ بدلوٍ منا فبصق فدعا، وقال سلمةُ: فإما دعا، وإما بصقَ فيها فجاشَت، فأَرْوَوا أنفسَهم وركابَهم(٣).

والحديثُ في هذا الباب كثيرٌ، ومنه الإجابةُ بدعاء الاستسقاءِ وما جانسَه.

---

(١) الموطأ للإمام مالك ١/ ١٤٣ (٣٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٥١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٨٤)، ومسلم (١٧٢٩، ١٨٠٧).

٨- فصل ومن مُعجِزاته تكثيرُ الطعامِ ببركتِه ودعائه

عن جابرٍ أن رجلًا أتى النبيَّ ﷺ يَستطعِمه فأَطعَمه شطر وَسْق شَعير، فما زال يَأكُل منه وامرأتُه وضيفُه حتى كاله، فأتى النبيَّ ﷺ فأَخبَره، فقال: «**لو لم تَكِلْه لأَكَلْتم منه ولقامَ بكم**»[١].

ومن ذلك حديث أبي طلحةَ المشهورُ وإطعامِه ﷺ ثمانين -أو سَبعين- رجُلًا من أقراصٍ من شَعير جاء بها أنسٌ تحتَ يده -أي: إِبطه- فأَمَر بها ففُتَّت، وقال فيها ما شاءَ الله أن يَقول[٢].

وحديث جابرٍ في إطعامه ﷺ يومَ الخَندَق ألفَ رجل من صاع شعير وعَناق، وقال جابر: فأُقسِم بالله، لأَكَلوا حتى ترَكوه وانحرَفوا وإن بُرْمتنا لتغطُّ كما هي، وإن عَجينَنا ليخبز، وكان رسول الله ﷺ بصَقَ في العجين والبُرمة وبارَك[٣].

ومن ذلك حديثُ عبد الرحمن بن أبي بكر: كنَّا مع النبيِّ ﷺ ثلاثين ومئةً. وذكَر في الحديث أنه عُجِن صاعٌ من طعام وصُنِعت شاة، فشُوِيَ سَواد بَطنها، قال: وايمُ الله ما مِن الثلاثين ومئة إلَّا وقد حزَّ له حزَّة من سَواد بطنها، ثم جعل منها قَصْعتين فأَكَلْنا منهما أجمعون، وفضَل في القَصعتين فحَمَلته على البعير[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٧٨)، ومسلم (٢٠٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤١٠١)، ومسلم (٢٠٣٩).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦١٨)، ومسلم (٢٠٥٦).

ومنه أيضا حديثُ أبي هريرةَ حين أصابَه الجوع فاستَتبَعه النبيُّ ﷺ فوجَد لبَنًا في قدَح قد أُهديَ إليه، وأمَرَه أن يَدعوَ أهل الصُّفَّة قال: فقُلت: ما هذا اللبَنُ فيهم؟! كنتُ أحقَّ أن أصيبَ منه شَربة أَتقوَّى بها فدعَوْتهم. وذكَر أمرَ النبي ﷺ له أن يَسقِيَهم، فجعَلْت أُعطي الرجُل فيشرب حتى يَروَى، ثم يَأخذه الآخَر، حتى روِيَ جميعُهم. قال: فأخَذ النبيُّ ﷺ القدَحَ وقال: «**بَقِيتُ أَنا وأَنْتَ، اقْعُدْ فاشْرَبْ**» فشرِبتُ، ثُم قال: «**اشْرَبْ**»، وما زال يَقولها وأَشرَب حتَّى قلتُ: لا، والذي بعثَكَ بالحقِّ، ما أجِدُ له مسلكًا. فأخَذَ القدَح فحمِد الله وسمَّى وشرِب الفَضلة(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٥٢).

٩- فصل في كلام الشجَر وشهادتها له بالنبوة وإجابتها دَعْوته

عن ابن عمرَ قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ في سفَر فدَنا منه أعرابيٌّ فقال: «**يا أعرابيُّ، أين تُريدُ؟**» قال: إلى أهلي. قال: «**هل لكَ إلى خيرٍ؟**» قال: وما هو؟ قال: «**تَشهَد أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا عبدُه ورَسولُه**» قال: مَن يَشهَد لكَ على ما تَقول؟ قال: «**هَذِهِ الشَّجَرَةُ: السَّمُرَةُ**»، وهي بشاطِئِ الوادي، وادعُها فإنها تجيبك، فأَقبَلت تخدُّ الأرض حتى قامَت بين يديه، فاستَشْهَدها ثلاثًا فشهِدت أنه كما قال، ثُمَّ رجَعت إلى مكانها[1].

وفي الصحيحِ في حديث جابرِ بن عبدِ الله -الطويلِ-: ذهَب رسول الله ﷺ يَقضي حاجته، فلم يرَ شيئًا يَستَتِر به، فإذا بشجَرتَيْن بشاطِئِ الوادي، فانطَلَق رسول الله ﷺ إلى إحداهُما، فأَخَذ بغُصْن من أغصانها، فقال: «**انْقادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ الله**» فانقادت معه كالبعيرِ المخشوش الَّذي يُصانِع قائده، وذكَر أنه فعَل بالأُخرى مثلَ ذلك حتى إذا كان بالمنصفِ بينَهما قال: «**الْتَئِما عَلَيَّ بِإِذْنِ الله**»، فالتَأَمَتا.

وفي رِواية أُخرى قال: «**يا جابرُ، قُلْ لهذه الشجَرةِ: يَقولُ لكِ رَسولُ الله ﷺ: الْحَقِي بِصاحِبَتِكِ حتَّى أَجلِسَ خَلْفَكُما**»، ففعلت؛ فزَحَفت حتى لَحِقت بصاحِبتها، فجلَس خلفَها، فخرَجْت أُحضِر، وجلَسْت أُحدِّث نفسي، فالتَفَتُّ فإذا رسولُ الله ﷺ مقبِلًا والشجَرتان قد افترَقتا، فقامت كلُّ واحِدة منهما على ساقٍ، فوقَف رسولُ الله ﷺ وقفةً، فقال برَأْسه هكذا يمينًا وشِمالًا[2].

وفي حَديث عبدِ الله بن مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: آذَنَتِ النبيَّ ﷺ بالجِن ليلةَ استَمَعوا له شجَرةٌ[3].

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٥٦٦٢)، وابن حبان ١٤/ ٤٣٤ (٦٥٠٥).
(٢) أخرجه مسلم (٣٠١٢).
(٣) أخرجه البخاري (٣٨٥٩)، ومسلم (٤٥٠).

١٠- فصل في قصة حَنين الجِذْع

ويُعضِّد هذه الأخبار حديثُ أنين الجِذع وهو في نَفْسه مَشهور مُنتشِر، والخبَر به مُتواتر قد خرَّجه أهل الصحيح، ورواه منَ الصحابة بضعة عشرَ.

قال جابرُ بنُ عبد الله: كان المسجد مَسقوفًا على جُذوع نخل، فكان النبيُّ ﷺ إذا خطَب يَقوم إلى جِذع مِنها، فلمَّا صُنع له المِنبَر سمِعنا لذلك الجِذعِ صوتا كصوت العِشار[١].

١١- فصل [في تسبيح الجمادات]

ومثلُ هذا في سائرِ الجمادات، فعنِ ابن مَسعودٍ قال: لقَدْ كُنَّا نَسمَع تَسبيح الطَّعام وهو يُؤكَل[٢].

وعن جابرِ بنِ سمُرةَ عنه عليه السلام: «**إنِّي لأَعرِفُ حجَرًا بمكَّةَ كانَ يُسلِّمُ عليَّ**»[٣].

وعن أنَس: صعِد النبيُّ ﷺ وأبو بكر وعُمرُ وعثمانُ أُحُدًا فرجَف بهم؛ فقال: «**اثْبُتْ أُحُدُ، فإنَّما علَيْكَ نَبيٌّ وصِدِّيقٌ وشَهيدانِ**»[٤].

وعن ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قرَأ على المِنبَر: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] ثُم قال: «**يُمَجِّدُ الجَبَّارُ نَفْسَه: أَنا الجَبَّارُ أنا الجَبَّارُ، أنا الكَبيرُ المُتعَال**»، فرجَف المِنبَر حتَّى قُلنا: ليَخِرَّنَّ عنه[٥].

(١) أخرجه البخاري (٣٥٨٥).
(٢) أخرجه البخاري (٣٥٧٩).
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٧).
(٤) أخرجه البخاري (٣٦٧٥).
(٥) أخرجه البخاري (٧٤١٢، ٧٤١٣)، ومسلم (٢٧٨٨)، وأحمد ٩/ ٣٠٤ (٥٤١٤).

١٢- فصل في الآيات في ضُروب الحَيوانات

عن عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قالت: كان عِندنا داجِن، فإذا كان عِندنا رَسول الله ﷺ قَرَّ وثبَت مكانَه، فلم يَجِئ ولم يَذهَب، وإذا خرَج رسولُ الله ﷺ جاء وذهَب[(١)].

ومن ذلك قِصَّة كلام الذِّئْب المَشهورة عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ: بينا راعٍ يَرعى غنَمًا له عرَض الذئبُ لشاة منها، فأَخَذها الراعي منه، فأَقعَى الذِّئْب وقال للراعي: ألَا تَتَّقي اللهَ حُلْت بيني وبين رِزْقي؟! قال الراعي: العجَبُ من ذِئب يَتكلَّم بكلامِ الإنس. فقال الذئبُ: ألا أُخبِرُكَ بأعجبَ من ذلك؟! رسولُ الله ﷺ بين الحَرَّتين يُحدِّث الناس بأنباءِ ما قد سبَقَ. فأتى الراعِي النبيَّ فأَخبَره، فقال النبيُّ ﷺ له: «**قُمْ فَحَدِّثْهُمْ**»، ثم قال: «**صَدَقَ**»[(٢)].

ومثله في الجمل عن ثعلبةَ بن [أبي] مالك[(٣)]، وجابرِ بن عبد الله[(٤)]، ويعلى بن مرة[(٥)]، وعبدِ الله بن جعفر[(٦)] قال: وكان لا يدخل أحدٌ الحائط إلا شَدَّ عليه الجملُ، فلما دخل عليه النبيُّ ﷺ دعاه؛ فوَضعَ مشفرَه على الأرض، وبرك بين يديه، فخطَمه وقال: «**ما بين السماء والأرض شيءٌ إلا يعلمُ أني رسول الله، إلا عاصي الجنِّ والإنسِ**».

---

(١) أخرجه أحمد ٤١/ ٣٢٠ (٢٤٨١٨).

(٢) أخرجه أحمد ١٣/ ٤٢٥ (٨٠٦٣)، وأصله في البخاري (٢٣٢٤).

(٣) أخرجه الآجري في الشريعة ٤/ ١٥٨٩ (١٠٧٤)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢٨٢).

(٤) أخرجه أحمد ٢٢/ ٢٣٥ (١٤٣٣٣)، والدارمي (١٨).

(٥) أخرجه أحمد ٢٩/ ٨٩-٩١ (١٧٥٤٨).

(٦) أخرجه أبو داود (٢٥٤٩)، وأصله في مسلم (٣٤٢).

١٣- فصل في إحياءِ الموتى وكلامِهم

عن أبي هريرةَ أن يهوديةً أهدَت للنبيِّ ﷺ بخيبرَ شاةً مَصليةً سَمَّتها، فأكل رسول الله ﷺ منها، وأكل القومُ، فقال: «**ارفعوا أيديَكم؛ فإنها أخبرَتني أنها مسمومةٌ**» فمات بشر بن البراء، وقال لليهوديةِ: «**ما حملكِ على ما صنعتِ؟**» قالت: إن كنتَ نبيًا لم يضرك الذي صنعت، وإن كنت ملكًا أرحتُ الناس منك، قال: فأمر بها فقُتلت[١].

١٤- فصل في إبراءِ المَرضَى وذوي العاهات

تفَل النبي ﷺ في عينَيْ عليٍّ يوم خَيبرَ -وكان رمدًا- فأصبَحَ بارِئًا[٢].

ونفَث على ضَربة بساق سلَمةَ بنِ الأكوَعِ يومَ خيبرَ فبرِئَت[٣].

واشتَكى عليُّ بن أبي طالب فجعَل يَدعو فقال النبيُّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ اشْفِهِ**» أَوْ «**عافِهِ**»، ثم ضرَبه برِجْله فما اشتكى ذلك الوجعَ بعدُ[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥١٢) بذكر القتل، وأخرجه البخاري (٣١٦٩) بدونه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٠٦).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٥٦٤).

١٥- فصل في إجابة دُعائِه ﷺ

وهذا بابٌ واسعٌ جدًّا، وإجابةُ دَعوةِ النبي ﷺ لجماعة بما دعا لهم وعليهم متواتِرٌ على الجُملة مَعلوم ضَرورة.

عن أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالت أُمي: يا رسول الله، خادِمُك أَنَسٌ، ادعُ الله له. قال «**اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مالَهُ ووَلَدَهُ، وبارِكْ لَهُ فيما آتَيْتَهُ**»[١]. قال أنسٌ: فوالله، إن مالي لكثيرٌ، وإن ولدي وولدَ ولدي ليُعادُّون اليومَ على نحو المئة.

ودعا لسعدِ بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يُجيب اللهُ دعوتَه، فما دعا على أحَدٍ إلَّا استُجيبَ له[٢].

ودعا في الاستِسْقاء فسُقوا، ثُم شكَوْا إليه المطَرَ فدَعا فصَحوا[٣].

ودعا لابنِ عباس: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ في الدِّينِ، وعَلِّمْهُ التَّأويلَ**»[٤] فسمِّيَ بعدُ الحَبر، وتَرجمانَ القُرآن.

ودعا لأمِّ أبي هُريرةَ فأَسلَمت[٥].

ودعا على مضَرَ فأُقحِطوا حتى استَعْطَفته قريشٌ، فدعا لهم فسُقوا[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٤)، ومسلم (٦٦٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٥١).

(٣) أخرجه البخاري (٩٣٣)، ومسلم (٨٩٧).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥، ١٤٣)، وأحمد ٤/ ٢٢٥ (٢٣٩٧).

(٥) أخرجه مسلم (٢٤٩١).

(٦) أخرجه البخاري (٤٨٢١)، ومسلم (٢٧٩٨).

ودعا على كِسرى حين مزَّق كتابه أن يُمزِّق الله مُلْكه[(١)]، فلم تَبقَ له باقية، ولا بقِيَت لفارسَ رِياسة في أقطارِ الدنيا.

وقال لرجُل رآه يَأكُل بشِمالِه: «**كُلْ بِيَمِينِكَ**»، فقال: لا أَستطيعُ. فقال: «**لَا اسْتَطَعْتَ**» فلم يَرفَعْها إلى فِيهِ[(٢)].

وحديثه المشهورُ من رواية عبدِ الله بن مَسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في دُعائه على قُريشٍ حين وضَعوا السَّلى على رقَبته وهو ساجِد مع الفَرث والدمِ وسَمَّاهم، قال: فلقَدْ رأيتُهم قُتِلوا يومَ بدر[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٨٥)، ومسلم (١٧٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٢١).

١٦- فصل في كرامته وبرَكاته وانقلِاب الأعيان له فيما لَمَسه أو باشَره

عن أنسِ بنِ مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أهل المدينة فزِعوا مرةً، فركِب رسول الله ﷺ فرَسًا لأبي طلحةَ كان يَقطفُ، أو به قطافٌ. وقال غيرُه: يُبَطِّؤ. فلمَّا رجَع قال: «وجَدْنا فرَسَك بحرًا»، فكان بعدُ لا يُجارى[١].

وفي الصحيح عن أسماءَ بنتِ أبي بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنها أَخرَجت جُبَّة طيالسة، وقالت: كان رَسول الله ﷺ يَلبَسها، فنحن نَغسِلها للمَرضَى نَستَشْفي بها[٢].

وكان لأُمِّ مالِك عُكَّة[٣] تُهدِي فيها للنبيِّ ﷺ سمنًا، فأَمَرها النبي ﷺ أن لا تَعصرها، ثُم دفَعها إليها فإذا هي مَملوءة سمنًا، فيَأتيها بنوها يَسأَلونها الأدمَ - وليس عندهم شيءٌ- فتَعمِد إليها فتجِد فيها سمنًا، فكانت تُقيم أدمها حتى عصَرَتْها[٤].

وأعطى قَتادةَ بنَ النعمانِ -وصلَّى معه العِشاء في ليلة مُظلِمة مَطيرة- عُرجونًا وقال: «انطَلِقْ بِهِ فإِنَّه سَيُضِيء لكَ مِن بينِ يَدَيْكَ عشرًا ومِن خَلْفكَ عَشْرًا، فإذا دخَلْتَ بيتَكَ فسَتَرَى سَوادًا فاضْرِبْهُ حتَّى يَخرُج؛ فإِنَّهُ الشَّيْطانُ»، فانطَلَق فأَضاءَ له العرجونُ حتى دخَل بيتَه، ووجَد السوادَ فضرَبه حتى خرَج[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٦٧)، ومسلم (٢٣٠٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٦٩).
(٣) (العُكَّة): آنية السمن.
(٤) أخرجه مسلم (٢٢٨٠).
(٥) أخرجه أحمد ١٨/ ١٦٨-١٦٩ (١١٦٢٤).

ومنه برَكته في درور الشياهِ الحوائلِ باللبَن الكَثير كقِصَّة شاة أُمِّ مَعبَد[١]. وشاة المِقدادِ[٢].

وأخَذ قَبضة من تُراب يوم حُنينٍ ورمَى بها في وُجوهِ الكُفَّار وقال: «**شاهَتِ الوُجوهُ**»، فانصَرَفوا يَمسَحون القَذى عن أَعيُنِهم[٣].

وشَكا إليه أبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النسيانَ فأمَرَه ببَسْط ثوبه، وغرَف بيدِه فيه، ثُم أمَرَه بضَمِّه ففعَل، فما نسِيَ شيئًا بعدُ[٤].

وضرَب صدرَ جريرِ بنِ عبد الله ودعا له، وكان ذُكِرَ له أنه لا يَثبُت على الخيلِ، فصار من أفرَسِ العرَب وأَثبَتِهم[٥].

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه ١١/ ٥٧٧.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٥٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (١١٩)، ومسلم (٢٤٩٢).

(٥) أخرجه البخاري (٣٠٣٦)، ومسلم (٢٤٧٥).

١٧ - فصل [فيما أُطلع عليه من الغيوب]

ومن ذلك ما أُطْلِعَ عليه منَ الغُيوب وما يَكون، والأحاديثُ في هذا البابِ بحر لا يُدرَك قعرُه، ولا ينزف غمره، وهذه المعجزةُ من جملة مُعجِزاته المعلومة على القَطْع الواصِل إلينا، خبرُها على التواتر؛ لكَثرة رُواتها واتِّفاق معانيها على الاطلاع على الغَيْب.

عن حُذيفةَ قال: قام فينا رَسولُ الله ﷺ مقاما فما ترَك شيئًا يَكون في مَقامه ذلك إلى قِيام الساعةِ إلَّا حدَّثه، حفِظَه مَن حفِظَه، ونسِيَه مَن نسِيَه، قد علِمه أصحابي هؤلاءِ، وإنه ليَكون منه الشيء فأعرِفه فأَذكُره كما يَذكُر الرجل وجهَ الرجُل إذا غاب عنه، ثُم إذا رآه عرَفَه[(١)].

وقد خرَّج أهل الصحيح والأئمة ما أَعلَمَ به أصحابَه ﷺ ممَّا وعَدَهم به من الظهورِ على أعدائه، وفَتْح مكةَ، وبيت المَقدِس، واليَمَن، والشام، والعراق، وظُهور الأمنِ حتى تظعن المرأةُ من الحِيرة إلى مكَّةَ لا تَخاف إلا اللهَ، وأن المَدينة ستُغزَى، وتُفتح خيبرُ على يدَيْ عليٍّ في غدِ يومِه، وما يَفتَح الله على أُمَّته من الدنيا ويؤتون من زَهْرتها، وقِسمتهم كنوز كِسرى وقَيصر، وما يَحدُث بينهم من الفتون والاختِلاف والأهواء، وسُلوك سَبيل مَن قبلهم، وقِتالهمُ التركَ. وذَهاب كِسرى وفارسَ حتى لا كِسرى ولا فارسَ بعدَه، وذَهاب قيصر حتَّى لا قيصرَ بعدَه، وأن عمارًا تَقتُله الفِئة الباغيةُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠٤)، ومسلم (٢٨٩١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**يَكُونُ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ**»[(١)]، فرَأَوْهما الحجَّاجَ والمُختارَ، وأن مُسيلِمةَ يَعقِره الله، وأن فاطِمةَ أوَّلُ أهلِه لُحوقًا به، وأَنذَر بالرِّدَّة.

وأَخبَر بشأن أُوَيْس القَرْني، وبأُمَراءَ يُؤخِّرون الصلاة عن وقتِها، ولا تَقوم الساعة حتى يَسوق الناسَ بعَصاه رجُلٌ من قحطانَ.

وقال: «**لَا يَأتِي زَمانٌ إلَّا والَّذي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ**»[(٢)].

وقال: «**هَلاكُ أُمَّتي عَلى يَدَيْ أُغيلِمةٍ مِن قُريشٍ**»، قال أبو هُريرةَ راويه: لو شِئْت سمَّيْتهم لكُم بَنو فُلان وبَنو فُلان[(٣)].

وأن قُريشًا والأحزاب لا يَغزونه أبَدًا وأنه هو يَغزوهم.

وأخبَر بالمُوتانِ الذي يَكون بعد فتح بيت المَقدِس.

وأنهم يَغزون في البَحْر كالمُلوك على الأسِرَّة.

وأن الدِّين لو كان مَنوطًا بالثُّريَّا لنالَه رِجال من أبناء فارسَ.

وهاجَت ريحٌ في غَزاة فقال: «**هاجَتْ لِمَوْتِ مُنافِقٍ**»[(٤)]، فلما رَجَعوا إلى المدينة وجَدوا ذلك.

وأَعلَم بالذي غلَّ الشمْلةَ وحيث هي، وبشَأْن كِتاب حاطِبٍ إلى أهل مكةَ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٠٥).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٨٢).

وعن مَصارِع أهلِ بَدْر فكان كما قال.

وقال في الحسَن: «**إنَّ ابْنِي هَذا سَيِّدٌ وسَيُصْلِحُ اللهُ بهِ بَيْنِ فِئَتَيْنِ عَظيمَتَين من المسْلِمين**»[١]، ولسَعْدٍ: «**لعَلَّكَ تُخَلَّفُ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوامٌ وَيَسْتَضِرَّ بِكَ آخَرونَ**»[٢]، وأخبَرَ بقَتْلِ أهلِ مُؤتَةَ يوم قُتِلوا وبينهم مَسيرة شهر أو أزيدُ، وبمَوْت النجاشيِّ يوم مات وهو بأَرْضه.

وأخبَرَ أن أَسرَعَ أزواجه به لُحوقًا أطولُهن يَدًا، فكانت زينبُ لطولِ يدِها بالصدَقة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٠٩)، ومسلم (١٦٢٨).

١٨- فصل في عِصمة الله تعالى له من الناس وكِفايته مَنْ آذاهُ

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقال: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، قيل: بكافٍ محمَّدًا ﷺ أعداءَه المُشركين. وقيل غيرُ هذا، وقال: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾ [الحجر: ٩٥]، وقال: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠].

عن عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: كان النبي ﷺ يُحرَس حتى نزَلَت هذه الآيةُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فأَخرَج رسولُ الله ﷺ رأسَه من القُبَّة فقال لهم: «**يا أَيُّها النَّاسُ، انْصرِفوا؛ فَقَدْ عَصَمَني رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ**»[(١)].

ومنه العبرةُ المشهورةُ والكفايةُ التامةُ عندما أخافَتْه قريش وأجمعَتْ على قتلِه وبيَّتوه، فخرَجَ عليهم من بيتِه فقام على رؤوسِهم وقد ضرَبَ الله تعالى على أبصارِهم وذرَّ الترابَ على رؤوسِهم وخلصَ منهم.

وقصتُه مع سُراقةَ بنِ مالِك بن جُعشُم حين الهِجرة وقد جعَلَت قُريشٌ فيه وفي أبي بكرٍ الجَعائِل، فأُنذِر به، فركِب فرسَه فاتَّبَعه حتى إذا قرُب منه دعا عليه النبيُّ ﷺ فساخَتْ قوائمُ فرَسه، فخَرَّ عنها، واستَقْسَم بالأزلامِ، فخرَج له ما يَكره، ثم ركِب ودنا حتى سمِع قراءة النبي ﷺ وهو لا يَلتفِت، وأبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ يَلتفِت، وقال للنبيِّ ﷺ: أُتِينا. فقال: «﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]»،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٤٦).

فساخَت ثانية إلى رُكبتها وخرَّ عنها، فزَجَرها، فنهَضَت ولِقوائِمها مثلُ الدُّخان، فناداهم بالأَمان، فكتَب له النبيُّ ﷺ أمانًا كتَبه ابنُ فُهيرةَ، وقيل: أبو بكر. وأَخبرهم بالأخبار، وأمَرَه النبيُّ ﷺ أن لا يَترُك أحدًا يَلحَق بهم، فانصَرَف يقول للناس: كُفِيتم ما هاهنا. وقيل: بل قال لَهُما: أراكما دَعَوْتما عليَّ فادْعُوَا لي[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أبا جهل وعَد قريشًا لئِنْ رأى محمدًا يصلي ليَطَأَنَّ رقبتَه، فلمَّا صلَّى النبي ﷺ أعلَموه، فأَقبَل، فلمَّا قرُب منه ولَّى هاربًا ناكِصًا على عَقِبيه مُتَّقيًا بيديه، فسُئِل فقال: لما دَنَوْت منه أشرَفْت على خَندَق مَملوءٍ نارًا كِدْت أَهوِي فيه، وأَبصَرْت هولًا عظيمًا، وخَفْقَ أجنحة قد ملَأَتِ الأرض. فقال ﷺ: «**تِلْكَ المَلائِكَةُ لَوْ دَنا لَاخْتَطَفَتْهُ عُضْوًا عُضْوًا**»، ثم أُنزل على النبيِّ ﷺ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩ ﴾ [العلق: ٦ - ١٩].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٢٠٠٩).

١٩- فصل [في أنبائه مع الملائكة والجن]

ومن خَصائِصه ﷺ وكَراماته وباهِر آياته أنباؤُه مع الملائِكةِ والجنِّ وإمدادِ الله له بالملائكة وطاعة الجِنِّ له ورُؤية كثير من أصحابه لهم.

قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم: ٤]، وقال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ٩ - ١٠] الآيتين، وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩].

عن عبد الله قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٨]، قال: رأى جِبريلَ عليه السلام في صُورته له سِتُّمئة جَناح[(١)].

والخبَرَ في مُحادثته مع جِبريلَ وإسرافيلَ وغيرِهما من الملائكة وما شاهَدَه من كَثرتهم وعِظَم صُوَر بعضِهم ليلة الإسراء مَشهور، وقد رآهم بحَضْرته جماعة من أصحابه في مواطِنَ مُختلفة، فرأى أصحابُه جبريلَ عليه السلام في صورة رجُل يَسألُه عن الإسلام والإيمان[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

وقال عليه السلام: «إِنَّ شَيْطانًا تَفَلَّتَ البارِحةَ؛ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلاتي، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ، فأَرَدْتُ أن أَربِطَهُ إلى سارِيةٍ من سَوارِي المَسجِدِ حتَّى تَنظُروا إلَيْهِ كُلُّكُمْ فذَكَرْتُ دَعْوةَ أَخي سُلَيْمانَ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]، فَرَدَّهُ اللهُ خاسِئًا»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١).

٢٠- فصل [في إخبار أهل الكتاب بصفاته ﷺ]

ومن دَلائِل نُبوته وعلامات رِسالته ما تَرادَفت به الأخبارُ عن الرُّهبان والأحبار وعُلماء أهل الكتُب من صِفته وصِفة أُمَّته، واسمِه وعلاماته، وذِكْر الخاتَم الَّذي بين كتِفَيْه.

وما وُجِد من ذلك في أشعار الْمُوحِّدين الْمُتقدِّمين من شِعْر تُبَّع والأوسِ بن حارِثةَ وكعب بن لُؤيٍّ وسُفيانَ بنِ مُجاشع وقُسِّ بنِ ساعدةَ، وما ذكر عن سَيْف بن ذِي يَزَن وغيرهم، وما عرف به من أَمْره زيد بن عمرِو بن نُفيل وورقة بن نوفل وعثكلان الحِميري وعُلماء يَهود وشامول عالِمهم صاحِب تُبَّع من صِفته وخبَره.

وما أُلفِيَ من ذلك في التوراةِ والإنجيل ممَّا قد جَمَعه العلماء وبيَّنوه ونقله عنهما ثِقات مَن أسلَم منهم مثل ابنِ سلَام وابنَىْ سَعيةَ وابن يامين ومُخَيريق وكعبٌ وأشباههم مِمَّن أَسلَم من علماء يَهودَ وبَحيراء ونسطور الحبشةِ وصاحب بُصرى وضغاطر وأَسقُف الشام والجارود وسَلمان وتميم والنجاشيِّ ونَصارى من الحبشة وأساقِف نَجْران غيرهم ممن أسلَم من علماء النَّصارى.

وقد اعترَف بذلك هِرقلُ، وصاحب رومة عالِما النصارى ورئيساهم، ومُقوقس صاحب مِصرَ والشيخ صاحِبه وابن صوريا وابن أخطَبَ وأخوه وكَعْب بن أسَد والزَّبير بن باطيا وغيرهم من عُلماء اليهود مِمَّن حمَله الحسدُ والنفاسةُ على البقاء على الشَّقاوة، والأخبار في هذا كثيرةٌ لا تَنحصِر.

٢١- فصل [فيما ظهر من آيات قبل النبوة وبعدها]

ومن ذلك ما ظهر من الآيات عند مولدِه، وما حَكته أمه ومن حضرَه من العجائبِ، وما رأته من النور الذي خرجَ معه عند ولادتِه.

وما تعرَّفت به حليمةُ وزوجها ظِئراه من بركته ودرورِ لبنها له، ولبن شارفها، وخصبِ غنمِها، وسرعة شبابِه، وحسنِ نشأته.

ومن ذلك حراسةُ السماء بالشهب، وقطع رصدِ الشياطين، ومنعهم استراقَ السمع، وما نشأ عليه من بُغض الأصنام والعفةِ عن أمور الجاهليةِ، وما خصه الله به من ذلك وحماه حتى في ستره في الخبر المشهور عند بناءِ الكعبةِ، إذ أخذ إزارَه ليجعله على عاتقه ليحملَ عليه الحجارةَ وتعرى فسقط إلى الأرض حتى رد إزارَه عليه، ومن ذلك إظلالُ الله له بالغمام في سفره.

ومن ذلك تحبيبُ الخلوةِ إليه حتى أُوحي إليه، ثم إعلامُه بموته ودنو أجلِه.

وأن بين بيتِه وبين منبره روضةً من رياض الجنة، وتخييرِ الله له عند موتِه، وما اشتملَ عليه حديثُ الوفاة من كراماته وتشريفِه، إلى ما ظهرَ على أصحابه من كرامتِه وبركتِه.

٢٢- فصل [في كون معجزاته ﷺ أظهر من سائر معجزاتِ الرسل]

ومعجزاتُ نبينا ﷺ أظهرُ من سائر معجزاتِ الرسل بوجهين:

أحدِهما: كثرتها، وأنه لم يؤت نبيٌّ معجزةً إلا وعند نبينا مثلُها، أو ما هو أبلغُ منها، فهذا القرآنُ، وكله معجزٌ وأقل ما يقع الإعجازُ فيه عند بعض أئمةِ المحققين سورة: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ أو آيةٌ في قدرها، وذهب بعضُهم إلى أن كل آية منه كيف كانت معجزة، وزاد آخرون أن كلَّ جملةٍ منتظمة منه معجزةٌ، وإن كانت من كلمةٍ أو كلمتين، والحقُّ ما ذكرناه أولًا لقول تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] فهو أقلُّ ما تحداهم به مع ما ينصرُ هذا من نظرٍ وتحقيق يطولُ بسطُه.

الوجه الثاني: وضوحُ معجزاتِه ﷺ، فإن معجزاتِ الرسل كانت بقدر هِمَم أهل زمانهم، وبحسب الفنِّ الذي سما فيه قرنُه.

فلما كان زمنُ موسى غايةُ علم أهله السحرُ؛ بعث إليهم موسى بمعجزة تُشبه ما يدعون قدرتَهم عليه، فجاءهم منها ما خرق عادتَهم، ولم يكن في قدرتهم وأبطلَ سحرهم.

وكذلك زمنُ عيسى أغنى ما كان الطبُّ، وأوفر ما كان أهلُه، فجاءهم أمرٌ لا يقدرون عليه وأتاهم ما لم يحتسبوه من إحياء الميتِ، وإبراء الأكمهِ والأبرصِ، دون معالجةٍ ولا طب، وهكذا سائرُ معجزات الأنبياء.

ثم إن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ وجملةُ معارف العرب وعلومِها أربعة: البلاغةُ، والشعر، والخبرُ، والكهانة، فأنزل عليه القرآنَ الخارق لهذه الأربعةِ فصول.

ثم بقيَت هذه المعجزةُ الجامعة ثابتةً إلى يوم القيامة بينةَ الحُجة لكلِّ أمة تأتي، وسائر معجزات الرسل انقرضت بانقراضِهم وعدمت بعدم ذواتِها، ومعجزةُ نبينا ﷺ لا تبيد ولا تنقطع، وآياتُه تتجدد ولا تضمحلُّ؛ ولهذا أشار عليه السلام بقوله: «**ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أُعطيَ من الآيات ما مثلِه آمن عليه البشرُ، وإنما كان الذي أُوتيتُ وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أني أكثرُهم تابعًا يوم القيامة**»(١).

وقد غاب عن بعضِ العلماء وجهُ ظهور آيته على سائر آيات الأنبياءِ حتى احتاج للعذر عن ذلك بدقةِ أفهام العرب، وذكاءِ ألبابها، ووفورِ عقولها، وأنهم أدركوا المعجزةَ فيه بفطنتِهم، وجاءهم من ذلك بحسبِ إدراكِهم، وغيرهم من القبط وبني إسرائيلَ، وغيرُهم لم يكونوا بهذه السبيلِ، بل كانوا من الغباوة وقلة الفطنةِ بحيث جوز عليهم فرعونُ أنه ربهم، وجوزَ عليهم السامريُّ ذلك في العجلِ بعد إيمانِهم، وعبدوا المسيحَ مع إجماعهم على صلبِه، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

فجاءَتهم من الآيات الظاهرة البينة للأبصارِ بقدرِ غِلظِ أفهامهم ما لا يشكون فيه، ومع هذا فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] ولم يصبروا على المنِّ والسلوى، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ، والعرب على جاهليتِها أكثرها يعترفُ بالصانع، وإنما كانت تتقربُ بالأصنام إلى الله زُلفى، ومنهم من آمنَ بالله وحدَه من قبلِ الرسولِ ﷺ بدليل عقلِه وصفاءِ لُبه، ولما جاءهم الرسولُ بكتاب الله فهموا حكمتَه وتبينوا بفضل إدراكهم لأول وَهْلةٍ معجزتَه؛ فآمنوا به، وازدادوا كل يوم إيمانًا، ورفضوا الدنيا كلَّها في صحبته، وهجروا ديارَهم وأموالهم، وقتلوا آباءَهم وأبناءَهم في نصرته.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

القسمُ الثاني: فيما يجبُ على الأنامِ من حقوقِهِ ﷺ

هذا قسمٌ لخَّصنا فيه الكلامَ في أربعةِ أبوابٍ، ومجموعُها في:

- وجوبِ تصديقِه واتِّباعه في سنَّته وطاعتِه.
- ومحبَّتِه ومُناصحَتِه.
- وتوقيرِه وبِرِّه.
- وحكمِ الصلاةِ عليه والتسليمِ، وزيارةِ قبرِه ﷺ.

الباب الأول: في فرضِ الإيمان به ووجوبِ طاعته واتِّباع سنَّته

إذا تقرر نبوَّتُه ﷺ وصحةُ رسالتِه وجبَ الإيمانُ به وتصديقُه فيما أتى به.

قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن:٨]، وقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الفتح: ٨-٩] وقال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فالإيمانُ بالنبيِّ محمدٍ ﷺ واجبٌ مُتعينٌ لا يتمُّ الإيمانُ إلا به، ولا يصحُّ إسلامٌ إلا معه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن رسولِ الله ﷺ قال: «**أُمرت أن أقاتلَ الناسَ حتى يَشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي، وبما جئتُ به، فإذا فَعلوا ذلك عَصموا مِنِّي دماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّها، وحسابُهم على الله**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢١).

١- فصل [في وجوب طاعته]

وأما وجوبُ طاعتِه فإذا وجبَ الإيمانُ به وتصديقُه فيما جاء به وجبت طاعتُه؛ لأن ذلك مما أتى به، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال:٢٠]، وقال: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران:٣٢]، وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران:١٣٢]، وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ [النور:٥٤]، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧]، وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩]، وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤]، فجعل تعالى طاعةَ رسولِه طاعتَه، وقرنَ طاعتَه بطاعتِه، ووَعَدَ على ذلك بجَزيلِ الثوابِ وأَوْعَدَ على مخالفَتِه بسوءِ العِقابِ وأوجب امتثالَ أمرِه واجتنابَ نهيِه.

قال المُفسِّرون والأئمَّةُ: طاعةُ الرسول في التزامِ سُنَّتِه والتسليمِ لما جاء به، وما أرسل الله من رسولٍ إلا فَرَضَ طاعتَه على مَن أرسلَه إليهم.

وعن أبي هُريرةَ قال: إن رسولَ الله ﷺ قال: «**من أطاعني فقد أطاعَ الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاعَ أميري فقد أطاعَني ومن عصَى أميري فقد عصانِي**»[1]، فطاعةُ الرسولِ من طاعةِ الله، إذ الله أمر بطاعتِه، فطاعتُه امتثالٌ لما أمر الله به وطاعةٌ له.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

وقد حكى الله عن الكفَّارِ في درَكات جَهنَّم: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب:٦٦]، فتمنَّوا طاعتَه حيث لا ينفعُهم التمنِّي، وقال ﷺ: «**إذا نهيتُكم عن شيءٍ فاجتنبوه، وإذا أمرتُكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتُم**»(١).

وفي حديث أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عنه ﷺ: «**كُلُّ أمتي يَدخلون الجنَّةَ إلا من أبَى**» قالوا: يا رسولَ الله، ومن يَأبَى؟ قال: «**من أطاعَني دخل الجنَّةَ ومن عصاني فقد أبَى**»(٢).

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

٢- فصل [في وجوب اتباعه]

وأمَّا وجوبُ اتِّباعِه، وامتثالِ سُنَّته، والاقتداءِ بهَديه فقد قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [آل عمران:٣١]، وقال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء:٦٥] أي: يَنقادون لحُكمِك.

وقال تَعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب:٢١]، والأسوةُ في الرسولِ الاقتداءُ به، والاتِّباعُ لسنَّتِه، وتركُ مخالفتِه في قولٍ أو فعلٍ.

وعن العِرباضِ بن ساريةَ في حديثه في مَوعظةِ النبيِّ ﷺ أنه قال: «**فعَلَيكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشدين المَهديِّينَ، عَضُّوا عليها بالنواجذِ وإيَّاكم ومُحدثاتِ الأُمورِ فإن كلَّ مُحدثةٍ بدعةٌ، وكُلَّ بِدعةٍ ضلالةٌ**»[١].

وفي حديثِ عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: صنعَ رسولُ الله ﷺ شيئًا ترخَّص فيه، فتنزَّه عنه قومٌ، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فحَمِدَ الله ثم قال: «**ما بالُ قومٍ يتنزَّهون عن الشيءِ أصنعُه؟! فوالله إني لأعلمُهم بالله وأشدُّهم له خشيةً**»[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

وأما ما ورد عن السلفِ والأئمَّةِ من اتِّباع سنتِه والاقتداءِ بهديِه وسيرتِه ﷺ فعن ابن شِهابٍ، عن رجلٍ من آل خالدِ بن أَسيدٍ أنه سأل عبدَ الله بن عمرَ فقال: يا أبا عبدِ الرحمن، إنَّا نجدُ صلاةَ الخوفِ وصلاةَ الحضرِ في القرآنِ، ولا نجد صلاةَ السفرِ.

فقال ابنُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يا ابنَ أخي، إن الله بعثَ إلينا محمدًا ﷺ ولا نعلمُ شيئًا، فإنما نفعلُ كما رأيناه يفعلُ.

وكتب عمرُ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عُمَّاله بتعلُّم السنَّةِ والفرائضِ واللحْنِ، أي: اللغةِ، وقال: إن ناسًا يُجادِلونكم -يعني: بالقرآنِ- فخذوهم بالسُّننِ؛ فإن أصحابَ السنن أعلمُ بكتاب الله.

وفي خبرِه حين صلى بذي الحُليفَةِ ركعتين فقال: أصنعُ كما رأيتُ رسولَ الله ﷺ يَصنعُ[(١)].

وكان ابنُ مسعودٍ يقول: القصدُ في السنة خيرٌ من الاجتهادِ في البِدعة[(٢)].

وقال الشافعيُّ: ليس في سنةِ رسولِ الله ﷺ إلا اتِّباعُها[(٣)].

وقال عمرُ -ونظر إلى الحجرِ الأسودِ-: والله، إنك حجرٌ لا تنفعُ ولا تضرُّ، ولولا أني رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُقبِّلُك ما قبَّلتُك[(٤)]، ثم قبَّلَه.

وقال أبو عثمانَ الحيريُّ: من أمَّرَ السنَّةَ على نفسِه قولًا وفعلًا نَطَقَ بالحكمة، ومن أمَّرَ الهوى على نفسِه نَطَقَ بالبدعَةِ[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم (٦٩٢).

(٢) أخرجه الدارمي (٢٢٣).

(٣) الأم للشافعي ٣/ ٢٨٦، ٤/ ٣٩٢، ٥/ ١٤.

(٤) أخرجه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).

(٥) أخرجه الثعلبي في تفسيره، وأبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٤٤، والبيهقي في الزهد (٣١٩).

٣- فصل [في مغبة مخالفة أمره ﷺ]

ومخالفةُ أمرِه وتبديلُ سنته ضلالٌ وبدعةٌ متوعَّدٌ من الله تعالى عليه بالخِذلانِ والعذابِ، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

وعن أبي هُريرةَ أن رسولَ الله ﷺ خرج إلى المَقبرةِ ... وذكر الحديثَ في صفة أمَّته، وفيه: «**فليُذادَنَّ رجالٌ عن حوضي كما يُذادُ البعيرُ الضالُّ، فأُناديهم: ألا هَلُمَّ، ألا هَلُمَّ. فيُقال: إنهم قد بدَّلوا بعدك. فأقول: فسُحقًا، فسُحقًا، فسُحقًا**»[(١)].

وروى أنسٌ أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَن رغِبَ عن سُنَّتي فليس منِّي**»[(٢)].

وقال: «**مَن أَدخَلَ في أمرِنا ما ليس منه فهو رَدٌّ**»[(٣)].

وروى ابنُ أبي رافعٍ عن أبيه عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم مُتَّكئًا على أريكَتِه، يأتيه الأمرُ من أَمري مما أمرتُ به أو نَهيتُ عنه، فيقولُ: لا أَدري ما وَجَدنا في كتابِ الله اتَّبعناه**»[(٤)]، زاد في حديثِ المِقدامِ: «**ألا وإن ما حَرَّمَ رسولُ الله ﷺ مثلُ ما حرَّمَ الله**»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٦٧)، ومسلم (٢٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٠٥)، والترمذي (٢٦٦٣)، وابن ماجه (١٣).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجه (١٢).

وقال ﷺ: «**هلك المُتنطِّعون**»[١].

وقال أبو بكرٍ الصِّديقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لستُ تاركًا شيئًا كان رسولُ الله ﷺ يعملُ به إلا عمِلت به، إني أَخشى إن تركت شيئًا من أمرِه أن أزيغَ[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٩).

الباب الثاني: في لُزوم مَحبَّته ﷺ

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤]، فكفى بهذا حَضًّا وتنبيهًا ودلالةً وحُجَّةً على إلزام محبَّته ووجوب فرضِها وعِظَمِ خطرها واستحقاقِه لها ﷺ؛ إذ قرَّع تعالى من كان مالُه وأهلُه وولده أحبَّ إليه من الله ورسولِه وأوعَدَهم بقولِه تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ ثم فسَّقهم بتمامِ الآية، وأعلَمَهم أنهم ممن ضَلَّ ولم يهده الله.

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسولَ الله ﷺ قال: «**لا يُؤمنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولدِه ووالِده والناسِ أجمعين**»[١].

وعنه ﷺ: «**ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمانِ: أن يكونَ الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلا لله، وأن يَكره أن يعودَ في الكفرِ كما يكره أن يُقذفَ في النار**»[٢].

وعن عمرَ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنه قال للنبيِّ ﷺ: لَأَنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا نفسي التي بين جَنبيَّ. فقال النبيُّ ﷺ: «**لن يُؤمِن أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من نفسِه**». فقال عمر: والذي أنزلَ عليك الكتابَ، لَأَنت أحبُّ إليَّ من نفسي التي بين جنبيَّ. فقال له النبيُّ ﷺ: «**الآنَ يا عمرُ**»[٣].

---

(١) البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).
(٢) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).
(٣) أخرجه البخاري (٦٦٣٢).

١- فصل في ثوابِ مَحبَّته ﷺ

عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رجلا أتى النبيَّ ﷺ فقال: متى الساعةُ يا رسولَ الله؟ قال: «**ما أعددتَ لها؟**» قال: ما أعددتُ لها من كثيرِ صلاةٍ ولا صومٍ ولا صدقةٍ، ولكني أُحبُّ الله ورسولَه، قال: «**أنت مع مَن أحببتَ**»[(١)].

وقال النبيُّ ﷺ: «**المرءُ مع من أحبَّ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

٢- فصل فيما روي عن السلفِ والأئمةِ من مَحبَّتهم للنبيِّ ﷺ وشَوقِهم له

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسولَ الله ﷺ قال: «**مِن أشدِّ أمتي لي حُبًّا ناسٌ يكونون بعدي يَودُّ أحدُهم لو رآني بأهلِه وماله**»[(١)].

وعن عمرِو بن العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ[(٢)].

ونحوه عن عمرَ بن الخطاب قاله للعباسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن تُسلمَ أحب إلي من أن يُسلم الخطاب؛ لأن ذلك أحبُّ إلى رسول الله ﷺ[(٣)]، وعن ابن إسحاقَ أن امرأةً من الأنصارِ قُتل أبوها وأخوها وزوجها يومَ أحدٍ مع رسول الله ﷺ فقالت: ما فعل رسولُ الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا، هو بحمد الله كما تحبين. قالت: أَرونيه، حتى أنظرُ إليه، فلما رأته قالت: كلُّ مصيبة بعدك جلل[(٤)].

ولما أخرجَ أهلُ مكةَ زيدُ بن الدَّثنةِ من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيانُ بن حرب: أُنشدك بالله يا زيدُ، أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك تُضرب عنقُه وأنك في أهلِك؟ فقال زيدٌ: والله ما أُحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبهُ شوكةٌ وأني جالسٌ في أهلي، فقال أبو سفيانُ: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحابِ محمدٍ محمدًا ﷺ[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٢١).

(٣) أخرجه البزار ١١/ ١٨٢ (٤٩٢٤).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام ٢/ ٩٩، تاريخ الطبري ٢/ ٥٣٣.

(٥) انظر: سيرة ابن هشام ٢/ ١٧٢، تاريخ الطبري ٢/ ٥٤٢.

٣- فصل في علامةِ محبَّته ﷺ

اعلم أن من أحبَّ شيئًا آثره وآثر مُوافَقَتَه، وإلا لم يكن صادقًا في حبِّه وكان مُدَّعيًا، فالصادقُ في حب النبيِّ ﷺ من تَظهرُ علاماتُ ذلك عليه:

وأوَّلُها: الاقتداءُ به واستعمالُ سنَّته واتِّباعُ أقوالِه وأفعالِه وامتثالُ أوامرِه واجتنابُ نواهيه والتأدُّبُ بآدابِه في عُسره ويُسره ومَنشَطه ومَكرَهه، وشاهدُ هذا قولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾.

وإيثارُ ما شرعَه وحضَّ عليه على هوى نفسِه ومُوافقة شهوتِه، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: ٩].

ومن علاماتِ محبة النبيِّ ﷺ: كَثرةُ ذِكره له؛ فمن أحبَّ شيئًا أكثر ذكرَه.

ومنها: كثرةُ شوقِه إلى لقائِه، فكلُّ حبيبٍ يحبُّ لقاءَ حبيبِه.

وفي حديث الأشعريِّينَ عند قدومِهم المدينةَ، أنهم كانوا يَرتجزون:

غـدًا نلقى الأحبَّه

محمدًا وصحبَه(١)

ومن علاماتِه: تعظيمُه له، وتوقيرُه عند ذِكره، وإظهارُ الخشوعِ والانكسارِ مع سماعِ اسمه.

---

(١) أخرجه أحمد ١٩/ ٨٣ (١٢٠٢٦)، والنسائي في الكبرى ٧/ ٣٨٧.

ومنها: **محبَّتُه لمن أحبَّ النبيُّ ﷺ** ومن هو بسببه من أهلِ بيتِه وصحابتِه من المُهاجرين والأنصارِ، وعداوةُ من عاداهم، وبُغضُ من أبغضهم وسبَّهم؛ فمن أحبَّ شيئًا أحب من يُحب.

وقد قال ﷺ في فاطمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**إنها بَضعةٌ مِنِّي؛ يُغضِبني ما أغضبَها**»(١).

وقال لعائشةَ في أسامةَ بن زيدٍ: «**أحبيه فإني أحبُّه**»(٢).

وقال: «**آيةُ الإيمانِ حُبُّ الأنصارِ؛ وآيةُ النفاق بُغضهم**»(٣).

فبِالحقيقةِ من أحبَّ شيئًا أحبَّ كلَّ شيءٍ يحبُه، وهذه سيرةُ السلفِ حتى في المُباحاتِ وشهوات النفسِ، وقد قال أنسٌ حين رأى النبيَّ ﷺ يتتبَّع الدُّبَّاءَ(٤) من حوالي القصعةِ: فما زلتُ أُحبُّ الدباء من يومئذٍ(٥).

وهذا الحسنُ بن عليٍّ وعبدُ الله بن عباسٍ وعبدُ الله بنُ جعفر أتوا سَلمى وسألوها أن تَصنعَ لهم طعامًا مما كان يُعجبُ النبيَّ ﷺ(٦).

وكان ابنُ عمرَ يلبس النِّعالَ السبتيَّةَ ويصبغ بالصُّفرةِ؛ إذ رأى النبيَّ ﷺ يفعلُ نحو ذلك(٧).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧١٤)، ومسلم (٢٤٤٩).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٨١٨)، وابن حبان ١٥/ ٥٣٤ (٧٠٥٨).
(٣) أخرجه البخاري (١٧)، ومسلم (٧٤).
(٤) (الدُّبَّاء): القرع.
(٥) أخرجه البخاري (٢٠٩٢)، ومسلم (٢٠٤١).
(٦) أخرجه الترمذي في الشمائل (١٧٩).
(٧) أخرجه البخاري (٥٨٥١)، ومسلم (١١٨٧).

ومنها: بُغضُ من أبغض الله ورسولَه ومعاداةُ من عاداه ومُجانبةُ من خالفَ سنَّتَه وابتدعَ في دينه، واستثقالُ كُلِّ أمرٍ يخالفُ شريعته قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [المجادلة:٢٢].

وهؤلاء أصحابُه ﷺ قد قَتلوا أحبَّاءهم في مرضاتِه، وقاتلوا آباءَهم وأبناءَهم، وقال له عبدُ الله بن عبدِ الله بن أُبيٍّ: لو شئتَ لأتيتُك برأسِه[١]. يعني: أباه.

ومنها: أن يُحب القرآنَ الذي أتى به ﷺ وهدى به واهتدى وتخلَّق به حتى قالت عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: كان خُلقُه القرآنَ[٢].

وحُبُّه للقرآن: تلاوتُه والعملُ به وتفهُّمُه.

ويحب سُنَّته ويقفُ عند حُدودها.

وقال ابنُ مسعودٍ: لا يسأل أحدٌ عن نفسِه إلا القرآنَ، فإن كان يحبُّ القرآنَ فهو يُحب الله ورسولَه[٣].

ومن علامات حُبِّه للنبيِّ ﷺ شفقتُه على أمَّته ونُصحه لهم وسعيه في مصالِحِهم ورفعُ المَضارِّ عنهم، كما كان ﷺ بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا.

ومن علامة تمامِ محبَّته: زُهد مُدَّعيها في الدنيا وإيثارُه الفقرَ واتِّصافُه به.

(١) أخرجه البزار (٧٩٧٨)، وابن حبان ٢/ ١٧٠ (٤٢٨)، والطبراني في الأوسط (٢٢٩).
(٢) أخرجه مسلم (٧٤٦)، وأحمد ٤١/ ١٤٨ (٢٤٦٠١).
(٣) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (١٠)، والفريابي في فضائل القرآن (٦، ٧).

٤- فصل في معنى المَحبَّة للنبيِّ ﷺ وحقيقتِها

اختلف الناسُ في تفسيرِ مَحبَّة الله ومحبة النبيِّ ﷺ، وكثرت عباراتُهم في ذلك، وليست ترجعُ بالحقيقةِ إلى اختلافِ مَقالٍ، ولكنها اختلافُ أحوالٍ.

فقال سفيانُ: المحبةُ اتِّباعُ الرسولِ ﷺ.

كأنه التفت إلى قولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران:٣١].

وقال بعضُهم: محبةُ الرسول ﷺ اعتقادُ نُصرتِه، والذبُّ عن سنتِه، والانقيادُ لها، وهيبةُ مُخالفتِه.

وقال بعضهم: المحبةُ مواطأةُ القلبِ لمرادِ الربِّ، يحبُّ ما أحبَّ ويكرهُ ما كرِهَ.

وحقيقةُ المحبَّةِ: الميلُ إلى ما يوافق الإنسانَ وتكون موافقتُه له إما لاستلذاذِه بإدراكِه كحُبِّ الصورةِ الجميلةِ والأصواتِ الحسنةِ والأطعمةِ والأشربةِ اللذيذة وأشباهِها مما كُلُّ طبعٍ سليمٍ مائلٌ إليها لموافقتِها له.

أو لاستلذاذه بإدراكِه بحاسَّةِ عقلِه وقلبِه معانيَ باطنة شريفة كحبِّ الصالحين والعلماءِ وأهل المعروفِ والمأثورِ عنهم السيرُ الجميلةُ والأفعال الحسنةُ، فإن طبع الإنسان مائلٌ إلى الشغفِ بأمثال هؤلاء، حتى يبلغَ التعصُّب بقومٍ لقومٍ والتشيُّعُ من أمة في آخرين ما يؤدي إلى الجلاءِ عن الأوطانِ وهتكِ الحُرَمِ واخترامِ النفوسِ.

أو يكون حبُّه إياه لموافقَته له من جِهةِ إحسانه له، وإنعامِه عليه فقد جُبلت النفوسُ على حُبِّ من أحسنَ إليها.

فإذا تقرَّر لك هذا نظرتَ هذه الأسبابَ كُلَّها في حقِّه ﷺ فعلِمت أنه ﷺ جامعٌ لهذه المعاني الثلاثةِ الُموجبة للمَحبة:

أما جمالُ الصورةِ والظاهرِ وكمالُ الأخلاقِ والباطنِ فهو مُقرَّرٌ بما لا يَحتاج توضيح[1].

وأما إحسانُه وإنعامُه على أمته: فكذلك قد تقرَّر في أوصافِ الله تعالى له من رأفتِه بهم ورحمته لهم وهدايتِه إيَّاهم وشفقتِه عليهم واستِنقاذهم به من النارِ وأنه ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، و﴿رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦]، و﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:١٦٤]، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة:١٦].

فأي إحسانٍ أجلُّ قدرًا وأعظمُ خطرًا من إحسانِه إلى جميع المؤمنين؟ وأيُّ إفضالٍ أعمُّ منفعةً وأكثرُ فائدةً من إنعامِه على كافَّةِ المسلمين؟ إذ كان ذريعتَهم إلى الهدايةِ، ومُنقذَهم من العَماية، وداعيهم إلى الفلاحِ والكرامةِ، ووسيلتَهم إلى ربِّهم وشفيعَهم والمتكلِّمَ عنهم والشاهدَ لهم، والُموجبَ لهم البقاءَ الدائمَ والنعيمَ السرمدَ.

فقد استبانَ لك أنه ﷺ مُستوجبٌ للمحبةِ الحقيقية شرعًا بما قدمناه من صحيحِ الآثارِ، وعادةً وجبلَّةً بما ذكرناه آنفًا لإفاضتِه الإحسانَ وعمومِه الإجمالَ.

---

(١) انظر الباب الثاني من القسم الأول (ص٤٦).

فإذا كان الإنسانُ يحب مَن منحه في دنياه مَرَّةً أو مرتين معروفًا، أو استنقذه من هلَكَةٍ أو مَضرَّةٍ مُدةً التأذي بها قليلٌ منقطعٌ، فمن منحه ما لا يبيدُ من النعيمِ ووقاه ما لا يَفنى من عذابِ الجحيم أولى بالحُبِّ.

وإذا كان يُحبُّ بالطبعِ مَلِكٌ لحُسن سيرته أو حاكمٌ لما يُؤثَر من قوامِ طريقتِه أو قاضٍ بعيد الدارِ لما يُشادُ من علمِه أو كرم شيمَتِه، فمَن جمعَ هذه الخصالَ على غايةِ مراتبِ الكمالِ أحقُّ بالحُبِّ وأولى بالميلِ.

٥- فصل في وجوب مُناصحته ﷺ

قال الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [التوبة:٩١]، قال أهلُ التفسيرِ: إذا نصحوا للهِ ورسولِه: إذا كانوا مُخلِصين مسلمين في السرِّ والعلانيةِ.

وعن تَميمٍ الداريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إن الدينَ النصيحةُ، إن الدينَ النصيحةُ، إن الدينَ النصيحةُ**» ثلاث مرات، قالوا: لمن يا رسولَ الله؟ قال: «**لله ولكِتابِه ولرسولِه ولأئمةِ المسلمين وعامَّتهم**»(١).

قال الأئمةُ رحمهم الله: النصيحةُ للهِ ولرسولِه ولأئمةِ المسلمين وعامَّتهم واجبةٌ.

قال الإمامُ أبو سليمانَ البُستيُّ: النصيحةُ كلمةٌ يُعبر بها عن جملةِ إرادةِ الخيرِ للمنصوحِ له، وليس يمكن أن يُعبَّرَ عنها بكلمةٍ واحدةٍ تَحصُرها.

ومعناها في اللغةِ: الإخلاصُ، من قولهم: نصحتَ العسلَ إذا خلَّصتَه من شمعِه(٢).

وقال أبو بكر ابنُ أبي إسحاقَ الخفَّاف: النصحُ فعلُ الشيءِ الذي به الصلاحُ والمُلاءمةُ، مأخوذٌ من النِّصاحِ، وهو الخيطُ الذي يُخاط به الثوبُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥).

(٢) معالم السنن للخطابي ٤/ ١٢٦.

فنصيحةُ الله تعالى: صحَّةُ الاعتقاد له بالوَحدانيَّةِ، والرغبةُ في محَابِّه، والبُعدُ من مَساخطِه، والإخلاصُ في عبادته.

والنصحيةُ لكتابِه: الإيمانُ به، والعملُ بما فيه، وتحسينُ تلاوته والتخشُّع عنده، والتعظيم له، وتفهُّمُه، والتفقُّه فيه، والذبُّ عنه من تأويل الغالين وطعنِ المُلحدين.

والنصيحةُ لرسولِه: التصديقُ بنبوَّته وبذلُ الطاعةِ له فيما أمرَ به ونهى عنه.

وقال أبو بكرٍ: وموازَرتُه ونُصرتُه وحمايته حيًّا وميِّتًا، وإحياءُ سنته بالطلبِ والذبِّ عنها ونشرها، والتخلُّق بأخلاقِه الكريمة وآدابِه الجميلة.

وقال أبو إبراهيمَ إسحاقُ التُّجيبيُّ: نصيحةُ رسولِ الله ﷺ: التصديقُ بما جاء به والاعتصامُ بسنَّته ونشرُها والحضُّ عليها والدعوةُ إلى الله وكتابِه ولرسولِه وإليها وإلى العمل بها.

وقال أبو بكرٍ الآجُرِّيُّ: النصحُ له يقتضي نُصحين: نُصحًا في حياتِه، ونُصحًا بعد مماته:

ففي حياته: نصحُ أصحابِه له بالنصرِ والمُحاماة عنه ومُعاداةِ من عاداه والسمعِ والطاعةِ له وبذلِ النفوسِ والأموالِ دونه كما قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡـهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣]، وقال: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر:٨].

وأما نصيحةُ المسلمين له بعد وفاتِه: فالتزامُ التوقيرِ والإجلالِ وشدةِ المحبةِ له، والمثابرةُ على تعلم سنتِه والتفقهِ في شريعتِه، ومحبَّةُ أهل بيتِه وأصحابِه، ومُجانبةُ من رغِب عن سنتِه وانحرفَ عنها، وبُغضه والتحذيرُ منه، والشفقةُ على أمته، والبحثُ عن تعرف أخلاقِه وسيره وآدابِه، والصبرُ على ذلك.

وأما النصحُ لأئمةِ المسلمين: فطاعتُهم في الحقِّ، ومعونتُهم فيه وأمرُهم به، وتَذكيرُهم إياه على أحسنِ وجهٍ، وتنبيهُهم على ما غفَلوا عنه، وكُتِمَ عنهم من أمورِ المسلمين، وتركُ الخروجِ عليهم وتَضْرِيبِ الناس[1] وإفسادِ قلوبهم عليهم.

والنصحُ لعامَّة المسلمين: إرشادُهم إلى مَصالحهم، ومَعونتُهم في أمرِ دينهم ودنياهم بالقولِ والفعلِ، وتنبيهُ غافِلِهم وتبصيرُ جاهلِهم، ورِفدُ مُحتاجِهم، وسترُ عوراتهم، ودفعُ المضارِّ عنهم، وجلبِ المنافعِ إليهم.

---

(١) (تَضْرِيب الناسِ): الإغراء بينهم للوقيعة.

الباب الثالث: في تعظيمِ أمرِه ووجوب توقيرِه وبِرِّه

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ الآية [الفتح:٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحُجُرات:١]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحُجُرات:٢-٤]، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾ [النور:٦٣].

فأوجب تعالى تعزيرَه وتوقيرَه، وألزمَ إكرامَه وتعظيمَه.

وقال ابنُ عباسٍ: تُعزِّروه: أي: تُجِلُّوه[(١)].

ونُهِيَ عن التقدمِ بين يديه بالقولِ وسُوءِ الأدب بسبقِه بالكلام.

قال سهلُ بنُ عبد الله: لا تقولوا قبل أن يقولَ، وإذا قال فاستمِعوا له وأنصِتوا، ونُهوا عن التقدُّم والتعجُّل بقضاءِ أمرٍ قبل قضائِه فيه، وأن يَفتاتوا بشيءٍ في ذلك من قتالٍ أو غيره من أمرِ دينِهم إلا بأمره ولا يَسبقوه به[(٢)].

ثم وعظَهم وحذَّرهم مُخالفةَ ذلك فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحُجُرات:١].

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٥١.

(٢) انظر تفسير التستري (ص١٤٩) بمعناه.

وقال السُّلميُّ: اتقوا الله في إهمالِ حقِّه، وتضييع حُرمته؛ إنه سميعٌ لقولِكم، عليمٌ بفعلكم[(١)].

ثم نهاهم عن رفعِ الصوت فوقَ صوته، والجهرِ له بالقول كما يَجهر بعضُهم لبعضٍ ويرفعُ صوتَه.

ثم خوَّفهم الله تعالى بحبطِ أعمالِهم إن هم فعلوا ذلك، وحذَّرهم منه.

قيل: نزلت الآيةُ في مُحاورةٍ كانت بين أبي بكرٍ وعمرَ بين يدي النبيِّ ﷺ، واختلافٍ جرى بينهما حتى ارتفعَت أصواتُهما[(٢)].

وقيل: نزلت في ثابتِ بن قيسِ بن شَماسٍ خطيبِ النبيِّ ﷺ في مُفاخرةِ بني تميمٍ، وكان في أذنيه صممٌ، فكان يرفع صوتَه، فلما نزلت هذه الآيةُ أقامَ في منزلِه وخشِيَ أن يكون حبِط عملُه، ثم أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا نبيَّ الله، لقد خشيتُ أن أكون هلكتُ، نهانا الله أن نجهرَ بالقول، وأنا امرؤٌ جهير الصوتِ، فقال النبيُّ ﷺ: «**يا ثابتُ، أما ترضى أن تعيش حميدًا، وتُقتل شهيدًا، وتدخلَ الجنةَ؟**»[(٣)] فقُتل يومَ اليمامة.

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] قال بعضُ المفسرين: هي لغةٌ كانت في الأنصار، نُهوا عن قولها تعظيمًا للنبي ﷺ، وتبجيلًا له؛ لأن معناها: ارعَنا نرعَك، فنُهوا عن قولها: إذ مقتضاها كأنهم لا

(١) تفسير السلمي ٢/ ٢٦٠.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٤٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢١٩، والطبري في تفسيره ٢١/ ٣٤١، وأصله في البخاري (٣٦١٣)، ومسلم (١١٩) بنحوه.

يرعَونه إلا برعايتِه لهم، بل حقُّه أن يُرعى على كل حالٍ، وقيل: كانت اليهودُ تعرِّض بها للنبي ﷺ بالرعونة، فنُهي المسلمون عن قولها قطعًا للذريعة، ومنعا للتشبهِ بهم في قولها لمشاركةِ اللفظة. وقيل غيرُ هذا.

١- فصل في عادةِ الصحابة في تعظيمِه ﷺ وإجلالِه وتوقيرِه

عن عمرِو بن العاص قال: وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسولِ الله ﷺ، ولا أجلَّ في عينيَّ منه، وما كنت أطيقُ أن أملأَ عيني منه إجلالًا له، ولو سُئلتُ أن أصفه ما أطقتُ؛ لأني لم أكن أملأُ عينَيَّ منه[1].

وروى أسامةُ بن شَريكٍ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وأصحابُه حوله كأنما على رؤوسِهم الطيرُ[2].

وقال عروةُ بن مسعودٍ حين وجهته قريشٌ عامَ القضية[3] إلى رسولِ الله ﷺ، فرأى من تعظيمِ أصحابِه له ما رأى، وأنه لا يتوضَّأُ إلا ابتدروا وَضوءَهُ، وكادوا يَقتتِلون عليه، ولا يبصُق بُصاقًا ولا يتنخم نُخامةً إلا تلقَّوها بأكُفِّهم، فدَلكوا بها وجوهَهم وأجسادَهم، ولا تَسقط منه شعرةٌ إلا ابتدَروها، وإذا أمرهم بأمرٍ ابتدروا أمرَه، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتَهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيمًا له، فلما رجع إلى قريشٍ قال: يا معشرَ قريشٍ، إني جئت كِسرى في مُلكه، وقيصرَ في ملكِه، والنجاشيَّ في مُلكِه، وإني والله، ما رأيتُ مَلكًا في قومٍ قطُّ مثل محمدٍ في أصحابِه[4].

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١).
(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٥٥)، وأحمد ٣٠/ ٣٩٤ (١٨٤٥٣).
(٣) (عام القَضِيَّة): عام الحديبية.
(٤) أخرجه أحمد ٣١/ ٢١٢ (١٨٩١٠).

وفي روايةٍ: إن رأيتُ مَلكًا قط يُعظِّمه أصحابُه ما يعظمُ محمدًا أصحابُه، وقد رأيت قومًا لا يُسلِمونه أبدًا[(١)].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ والحلاقُ يحلِقه وقد أطافَ به أصحابُه فما يُريدون أن تقعَ شعرةٌ إلا في يدِ رجلٍ[(٢)].

٢- فصل [في أن حرمة النبي ﷺ وتوقيره بعد موته كما في حياته]

واعلم أن حُرمةَ النبيِّ ﷺ بعد مَوته وتوقيرَه وتعظيمَه لازمٌ كما كان في حالِ حياتِه، وذلك عند ذكره ﷺ وذكر حديثِه وسنتِه وسَماعِ اسمِه وسيرتِه ومُعاملةِ آله وعِترتِه[(٣)] وتعظيمِ أهل بيتِه وصحابَتِه.

قال أبو إبراهيم إسحاق التجيبي: واجبٌ على كلِّ مؤمنٍ متى ذكرَه أو ذُكِرَ عندَه أن يخضعَ ويخشعَ ويتوقَّرَ ويسكنَ من حركتِه، ويأخذَ في هيبتِه وإجلالِه بما كان يأخذُ به نفسَه لو كان بينَ يدَيْه، ويتأدَّبَ بما أدَّبَنا الله به.

قال مالكٌ -وقد سُئلَ عن أيوبَ السَّختيانيِّ-: ما حدَّثْتُكم عن أحدٍ إلا وأيوبُ أفضلُ منه[(٤)]، قال: وحجَّ حجتين فكنتُ أرمُقه ولا أسمعُ منه، غير أنه كان إذا ذُكِرَ النبيُّ ﷺ بكى حتى أرحمَه، فلما رأيتُ منه ما رأيتُ وإجلالَه للنبيِّ ﷺ كتبتُ عنه[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٢٥).

(٣) (عِتْرَته): أهله الأدنون.

(٤) التعديل والتجريح للباجي ١/ ٣٨٦.

(٥) السابق.

وقال مصعبُ بن عبدِ الله: كان مالكٌ إذا ذُكِرَ النبيُّ ﷺ يتغيَّر لونُه وينحني حتى يصعُب ذلك على جُلسائِه، فقِيلَ له يومًا في ذلك، فقال: لو رأيتُم ما رأيتُ لما أنكرتُم عليَّ ما تَرون، ولقد كنت أرى محمدَ بن المُنكدرِ -وكان سيِّدَ القُرَّاء- لا يكادُ يسأله أحدٌ عن حديثٍ أبدًا إلا يبكي حتى نرحمَه[(١)]، ولقد كنت أرى جعفرَ بن محمدٍ الصادقَ، وكان كثيرَ الدُّعابةِ والتبسُّم، فإذا ذكر عنده النبيُّ ﷺ اصفرَّ، وما رأيتُه يحدث عن رسولِ الله ﷺ إلا على طهارةٍ، وقد اختلفتُ إليه زمانًا فما كنت أراهُ إلا على ثلاثِ خِصالٍ: إما مصليًا، وإما صامتًا، وإما يقرأ القرآنَ، ولا يتكلم فيما لا يَعنيه، وكان من العلماءِ والعُبَّادِ الذين يَخشون الله عز وجل[(٢)].

ولقد كان عبدُ الرحمن بن القاسمِ يَذكر النبيَّ ﷺ فيُنظرُ إلى لونِه كأنه نُزِفَ منه الدمُ، وقد جف لسانُه في فمه هيبةً لرسولِ الله ﷺ[(٣)].

ولقد كنت آتي عامرَ بن عبدِ الله بن الزبيرِ فإذا ذُكِرَ عنده النبيُّ ﷺ بكى حتى لا يَبقى في عينيه دُموعٌ[(٤)].

ولقد رأيتُ الزهريَّ وكان من أهنأِ الناسِ وأقربِهم فإذا ذُكِرَ عنده النبيُّ ﷺ فكأنه ما عرَفَك ولا عرفتَه.

ولقد كنت آتي صفوانَ بنَ سُليمٍ وكان من المُتعبِّدين المُجتهدين، فإذا ذُكِرَ عنده النبيُّ ﷺ بكى فلا يَزالُ يبكي حتى يقومَ الناسُ عنه ويتركوه[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١/ ٢٢٠، والجوهري في مسند الموطأ (١٣٢)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٤٧ مختصرا.

(٢) أخرجه الجوهري في مسند الموطأ (ص٢٨٦).

(٣) أخرجه الجوهري في مسند الموطأ (ص٤٦٤).

(٤) أخرجه الجوهري في مسند الموطأ (ص٤٨١).

(٥) أخرجه الجوهري في مسند الموطأ (ص٣٨٨).

٣- فصل في سيرةِ السلف في تعظيمِ رواية حديث رسولِ الله ﷺ وسنَّته

عن عمرِو بن مَيمونٍ قال: اختلفتُ إلى ابن مسعودٍ سنة فما سمعتُه يقول: قال رسولُ الله ﷺ، إلا أنه حدَّث يومًا فجرى على لسانه: قال رسولُ الله ﷺ، ثم علاه كربٌ حتى رأيت العرق يتحدَّر عن جبهتِه، ثم قال: هكذا إن شاء الله، أو فوق ذا، أو ما دون ذا، أو ما هو قريبٌ من ذا(١).

وقال مالك: جاء رجلٌ إلى ابن المسيبِ فسأله عن حديث وهو مضطجعٌ فجلس وحدثَه، فقال له الرجلُ: وددتُ أنك لم تتعن، فقال: إني كرهتُ أن أحدثكَ عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجعٌ(٢).

وقال مصعبُ بن عبد الله: كان مالكُ بن أنسٍ إذا حدث عن رسولِ الله ﷺ توضَّأ وتهيَّأ ولبس ثيابَه ثم يحدث(٣).

قال مصعبٌ: فسئل عن ذلك فقال: إنه حديثُ رسول الله ﷺ.

وكان قتادةَ يَستحب أن لا يَقرأ أحاديثَ النبي ﷺ إلا على وضوء، ولا يحدثُ إلا على طهارة(٤)، وكان الأعمشُ إذا أراد أن يحدثَ وهو على غير وضوءٍ تيممَ(٥).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٥/ ٢٩٣ (٢٦٢٢٢)، وأحمد ٧/ ٣٤٣ (٤٣٢١).

(٢) أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ١/ ٤٧٦، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص٣٩٢)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٩٧٣).

(٣) أخرجه الجوهري في مسند الموطأ (ص١٠٣).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١/ ٣٤٤ (١٣٤٤).

(٥) أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص٣٩٢)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٩٧٨).

٤- فصل [في أن برَّ آله وذريته وأزواجه أمهات المؤمنين من برِّه ﷺ]

ومن توقيره ﷺ وبِرِّه: بِرُّ آله وذريَّته وأمَّهاتِ المؤمنين أزواجِه كما حضَّ عليه ﷺ وسلكه السلفُ الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب:٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦].

عن زيدِ بن أرقمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنشُدكم الله أهلَ بيتي...**» ثلاثًا، قلنا لزيدٍ: مَن أهلُ بيته؟ قال: آلُ عليٍّ وآل جعفر وآل عَقيلٍ وآل العباس[1].

وعن سعدِ بن أبي وقاصٍ: لما نزلت آيةُ المباهلةِ دعا النبيُّ ﷺ عليًّا وحَسنًا وحُسينًا وفاطمةَ وقال: «**اللهمَّ هؤلاء أهلي**»[2].

وقال النبي ﷺ في عليٍّ: «**من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، اللهمَّ والِ مَن والاه، وعادِ من عاداه**»[3].

وقال فيه: «**لا يُحبُّك إلا مومنٌ ولا يُبغضك إلا منافقٌ**»[4].

وقال للعباس: «**والذي نفسي بيده لا يدخل قلبَ رجلٍ الإيمانُ حتى يُحبَّكم لله ورسولِه، ومن آذى عمِّي فقد آذاني، وإنما عمُّ الرجل صِنو أبيه**»[5].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨).
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٠٤).
(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٢٦٢ (٩٥٠)، والنسائي في الكبرى ٧/ ٤٣٩ (٨٤١٩).
(٤) أخرجه مسلم (٧٨).
(٥) أخرجه الترمذي (٣٧٥٨).

وكان يأخذُ بيد أسامةَ بنِ زيد والحسن ويقول: «**اللهمَّ إني أحبُّهما فأحبَّهما**»[١].

وقال أبو بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ارقبوا محمدًا في أهلِ بيته[٢].

وقال أيضًا: والذي نفسي بيده لقرابةُ رسولِ الله ﷺ أحبُّ إليَّ أن أصلَ من قرابتي[٣].

وقال ﷺ لأُمِّ سلمة: «**لا تُؤذيني في عائشةَ**»[٤].

وعن عُقبةَ بن الحارث: رأيتُ أبا بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقد جعل الحسنَ بن علي على عُنقِه وهو يقول:

بأبي شبيهٌ بالنبيِّ

ليس شبيهًا بِعَليٍّ

وعليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يضحك[٥].

وكان أبو بكر وعمرُ يزوران أمَّ أيمن مولاةَ النبيِّ ﷺ ويقولان: كان رسولُ الله ﷺ يزورُها[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧١٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧١٢)، ومسلم (١٧٥٩).

(٤) أخرجه البخاري (٢٥٨١)، وانظر صحيح مسلم (٢٤٤٢).

(٥) أخرجه البخاري (٣٧٥٠).

(٦) أخرجه مسلم (٢٤٥٤).

٥- فصل [في أن برَّ أصحابه وتوقيرهم والاقتداء بهم من برِّه ﷺ]

ومن توقيرِه وبِرِّه ﷺ: توقيرُ أصحابه وبرهم ومعرفةُ حقِّهم والاقتداء بهم، وحُسنُ الثناءِ عليهم والاستغفارُ لهم، والإمساكُ عما شجرَ بينهم، ومُعاداةُ من عاداهم، والإضرابُ عن أخبارِ المؤرخين وجَهلةِ الرواةِ وضُلَّالِ الشيعةِ والمبتدعين القادحةِ في أحدٍ منهم، وأن يُلتمس لهم فيما نُقل عنهم من مِثل ذلك فيما كان بينهم من الفِتَن أحسنُ التأويلات، ويُخرَّج لهم أصوبُ المخارج؛ إذ هم أهلُ ذلك، ولا يُذكر أحدٌ منهم بسوءٍ، ولا يُغمص عليه أمرُه بل يُذكر حسناتُهم وفضائلُهم وحَميدُ سِيرتهم، ويُسكت عما وراء ذلك.

قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح:٢٩].

وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨].

وقال: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣].

وقال رسولُ الله ﷺ: «**لا تَسبُّوا أصحابي، فلو أنفق أحدُكم مثلَ أُحدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه**»(١).

وقال ﷺ في الأنصارِ: «**اعفوا عن مُسيئِهم، واقبَلوا من مُحسِنهم**»(٢).

وقال مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا النبيُّ مؤدِّب الخلق الذي هدانا الله به وجعله رحمةً للعالمين يَخرُج في جوفِ الليلِ إلى البقيعِ فيدعو لهم ويَستغفرُ كالمودِّع لهم، وبذلك أمرَه الله، وأُمِرَ النبيُّ بحبِّهم ومُوالاتهم ومُعاداةِ من عاداهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٩٩)، ومسلم (٢٥١٠).

الباب الرابع: في ذكرِ الصلاةِ عليه والتسليمِ وفرضِ ذلك وفضيلتِه

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

قال ابنُ عباس: معناه: إن الله وملائكتَه يُباركون على النبيِّ[(١)].

وقال أبو العاليةِ: صلاةُ الله: ثناؤه عليه عند الملائكةِ، وصلاةُ الملائكة: الدعاءُ[(٢)].

وقد فرَّقَ النبيُّ ﷺ في حديثِ تعليم الصلاةِ عليه بين لفظِ الصلاةِ ولفظ البرَكةِ فدلَّ أنهما بمعنيين.

وفي معنى السلامِ عليه ثلاثةُ وجوهٍ:

أحدُها: السلامةُ لك ومعك، ويكون السلامُ مصدرًا كاللذاذِ واللذاذَة.

الثاني: أي: السلامُ على حفظِك ورعايتك مُتولٍّ له، وكفيلٌ به، ويكون هنا السلامُ: اسمُ الله.

الثالث: أن السلامَ بمعني المُسالمة، والانقياد كما قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء:٦٥].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ١٧٤.

(٢) علقه البخاري قبل حديث (٧٤٩٧)، ووصله إسماعيل بن إسحاق القاضي في فضل الصلاة على النبي (٩٥).

١- فصل [في فرضية الصلاة عليه ﷺ]

واعلم أن الصلاةَ على النبيِّ ﷺ فرضٌ على الجملة غيرُ محددٍ بوقتٍ لأمر الله تعالى بالصلاةِ عليه، وحَمل الأئمَّة والعلماء له على الوجوبِ، وأجمعوا عليه، وحَكى أبو جعفرٍ محمدُ بنُ جريرٍ الطبريُّ: أن مَحمَلَ الآيةِ على الندبِ وادَّعى فيه الإجماعَ[1]، ولعلَّه فيما زادَ على مرةٍ والواجبُ منه الذي يَسقُط به الحرجُ ومأثَمُ تركِ الفرضِ مرةٌ، كالشهادةِ له بالنبوةِ، وما عدا ذلك مندوبٌ مرغَّبٌ فيه من سننِ الإسلامِ وشعارِ أهلِه.

وقالَ القاضي أبو بكرِ بن بُكَير: افتَرَضَ الله على خلقِه أن يُصلوا على نبيِّه ويُسلموا تسليمًا، ولم يَجعَل ذلك لوقتٍ معلومٍ؛ فالواجبُ أن يُكثِرَ المرءُ منها ولا يَغفلُ عنها[2].

وقال القاضي أبو محمدِ بن نصرٍ: الصلاةُ على النبيِّ ﷺ واجبةٌ في الجملةِ[3].

---

(١) تهذيب الآثار (الجزء المفقود) للطبري (ص٢٢٨).

(٢) انظر: المسالك في شرح موطأ مالك لابن العربي ٣/ ١٥٨.

(٣) عيون المسائل للقاضي عبد الوهاب أبو محمد بن نصر (ص١٢٠).

٢- فصل في المَواطن التي يُستحبُّ فيها الصلاةُ والسلام على النبيِّ ﷺ ويُرغب من ذلك

في تشهدِ الصلاةِ وذلك بعد التشهد، وقبلَ الدعاء.

عن فَضالةَ بنِ عُبيد: سمع النبيُّ ﷺ رجلًا يدعو في صلاتِه فلم يصلِّ على النبيِّ ﷺ؛ فقال النبيُّ ﷺ: «**عَجِلَ هذا**» ثم دعاه فقال له ولغيرِه: «**إذا صلى أحدُكم فليبدأْ بتحميد الله والثناء عليه، ثم ليُصلِّ على النبيِّ ﷺ، ثم ليَدعُ بعدُ بما شاء**»(١).

ومن مَواطن الصلاة عليه عند ذكرِه وسماعِ اسمه أو حديثِه أو عند الأذانِ.

فقد قال ﷺ: «**رغِم أنفُ رجلٍ ذُكرتُ عنده فلم يُصلِّ عليَّ**»(٢).

وروى النسائيُّ عن أوسِ بن أوسٍ عن النبيِّ ﷺ الأمرَ بالإكثارِ من الصلاة عليه يومَ الجُمُعة(٣).

ومن مَواطنِ الصلاةِ والسلامِ دخولُ المسجدِ.

قال عمرو بن دينارٍ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١] قال: إن لم يكن في البيت أحدٌ فقل: السلامُ على النبيِّ ورحمةُ الله وبركاتُه، السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصالحين، السلامُ على أهل البيتِ ورحمةُ الله وبركاته(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٧)، وأبو داود (١٤٨١)، والنسائي (١٢٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٥)، وأصله في مسلم (٢٥٥١).

(٣) سنن النسائي (١٣٧٤)، وأخرجه أيضا أبو داود (١٠٤٧)، وابن ماجه (١٠٨٥).

(٤) انظر الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٨/ ٥١٦٢.

قال ابنُ عباسٍ: المرادُ بالبيوت هاهنا المساجدُ[(١)].

ومن مَواطنِ الصلاة عليه أيضًا عند الصلاةِ على الجنائزِ.

وذُكر عن أبي أُمامةَ أنها من السنةِ[(٢)].

ومن مواطنِ الصلاة التي مضَى عليها عملُ الأمَّةِ ولم تنكرها: الصلاةُ على النبيِّ ﷺ وعلى آلِه في الرسائلِ وما يُكتبُ بعد البسملةِ.

ولم يكن هذا في الصدرِ الأوَّلِ وأُحدث عند ولايةِ بنى هاشمٍ، فمضى به عملُ الناسِ في أقطارِ الأرضِ، ومنهم من يَختم به أيضًا الكتبَ.

ومن مواطنِ السلامِ على النبيِّ ﷺ: تشهدُ الصلاةِ.

عن عبدِ الله بن مسعودٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إذا صلَّى أحدُكم فليقل: التحياتُ لله والصلوات والطيباتُ، السلام عليك أيها النبيُّ ورحمة الله وبركاتُه، السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصالحين، فإنكم إذا قلتموها أصابت كُلَّ عبدٍ صالحٍ في السماءِ والأرضِ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٨١، والحاكم ٢/ ٤٣٤.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٣/ ٤٨٩ (٦٤٢٨)، وابن أبي شيبة ٢/ ٤٩٠ (١١٣٧٩)، والحاكم ١/ ٥١٢ (١٣٣١).

(٣) أخرجه البخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢).

٣- فصل في كيفية الصلاةِ عليه والتسليمِ

عن أبي حُميدٍ الساعديِّ أنهم قالوا: يا رسولَ الله، كيف نُصلي عليك؟

قال: «**قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وأزواجه وذريَّته، كما صليتَ على آلِ إبراهيم، وبارِك على محمدٍ وأزواجِه وذريته، كما باركتَ على آل إبراهيمَ، إنك حَميدٌ مَجيدٌ**»[(١)].

وفي روايةٍ عن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ قال: «**قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آله، كما صليتَ على آل إبراهيمَ، وبارك على محمدٍ وعلى آلِه كما باركت على آلِ إبراهيم، في العالمين إنك حَميد مجيدٌ، والسلامُ كما قد عَلِمْتُم**»[(٢)].

وفي رواية كعبِ بن عُجرَةَ: «**اللهم صلِّ على محمدٍ وآل محمد، كما صليتَ على إبراهيمَ، وبارك على محمدٍ وآل محمد كما باركت على إبراهيمَ، إنك حَميدٌ مَجيدٌ**»[(٣)].

وقوله: «**والسلامُ كما قد عَلِمْتُم**»[(٤)] هو ما علمهم الله في التشهُّدِ من قوله: «**السلامُ عليك أيها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه، السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصالحين**».

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٩)، ومسلم (٤٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (٤٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦).

(٤) أخرجه مسلم (٤٠٥).

٤- فصل في فضيلةِ الصلاة على النبيِّ والتسليم عليه والدعاءِ له

عن عبدِ الله بن عمرٍو: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «**إذا سمعتُم المؤذِّنَ فقولوا مثلَ ما يقولُ، وصلوا عليَّ فإنه من صلَّى علي مرةً واحدةً صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلةَ؛ فإنها منزلةٌ في الجنَّةِ لا تنبغي إلا لعبدٍ من عبادِ الله، وأرجو أن أكونَ أنا هو، فمن سألَ اللهَ ليَ الوسيلةَ حلَّت عليه الشفاعةُ**»[(١)].

وعن أنسِ بن مالك أن النبيَّ ﷺ قال: «**من صلى عليَّ صلاةً صلى الله عليه عشر صلواتٍ، وحَطَّ عنه عشرَ خطيئات، ورفعَ له عشرَ درجاتٍ**»[(٢)].

وعن أُبيِّ بن كعبٍ: كان رسولُ الله ﷺ إذا ذهب رُبُعُ الليلِ قام فقال: «**يا أيُّها الناسُ، اذكروا الله، جاءت الراجفةُ، تتبعها الرادفةُ، جاء الموتُ بما فيه**»، فقال أُبيُّ بن كعبٍ: يا رسولَ الله، إني أُكثرُ الصلاةَ عليك فكم أجعلُ لك من صلاتي[(٣)]؟ قال: «**ما شئتَ**»، قال: الربعَ؟ قال: «**ما شئتَ، وإن زدتَ فهو خيرٌ**» قال: الثلثَ؟ قال: «**ما شئتَ، وإن زدت فهو خيرٌ**»، قال: النصفَ؟ قال: «**ما شئتَ، وإن زدت فهو خيرٌ**»، قال: الثلثين؟ قال: «**ما شئتَ، وإن زدت فهو خيرٌ لك**»، قال: يا رسولَ الله، أفأجعلُ صلاتي كُلَّها لك؟ قال: «**إذًا تُكفى ويُغفرُ ذنبُك**»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٤).

(٢) أخرجه النسائي (١٢٩٧).

(٣) (صَلاتي): من الصلاة بمعنى الدعاء.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٥٧).

وعن جابرِ بن عبد الله قال: قال النبيُّ ﷺ: **«من قال حين يَسمع النداءَ: اللهم ربَّ هذه الدعوة التامَّةِ والصلاةِ القائمةِ، آتِ محمدًا الوسيلةَ والفضيلةَ، وابعثهُ مَقامًا محمودًا الذي وعدته؛ حلَّت له شفاعتي يومَ القيامةِ»**[(١)].

وعن سعدِ بن أبي وقاصٍ: من قال حين يسمعُ النداءَ أو المؤذنَ: **«وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا؛ غفر له»**[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٤).

(٢) أخرجه مسلم (٣٨٦).

٥- فصل في ذمِّ من لم يُصلِّ على النبيِّ ﷺ وإثمِه

عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكرتُ عنده فلم يُصل عليَّ، ورَغِمَ أنفُ رجلٍ دخلَ رمضانُ ثم انسلخَ قبل أن يُغفرَ له، ورَغِمَ أنفُ رجلٍ أدركَ عنده أبواه الكِبرَ فلم يُدخلاه الجنةَ»**[(١)].

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنه عليه السلام أنه قال: **«البخيلُ -كل البخيل- الذي ذُكرت عنده فلم يُصلِّ عليَّ»**[(٢)].

وعن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أيما قومٍ جلسوا مجلسًا ثم تَفرقوا قبل أنْ يذكروا الله ويُصلوا على النبي ﷺ كانَت عليهم من الله تِرةٌ، إنْ شاء عذبَهم، وإن شاء غفرَ لهم»**[(٣)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٥)، وأصله في مسلم (٢٥٥١).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٥٦)، والترمذي (٣٣٨٠).

٦- فصل في تخصيصِه ﷺ بتبليغِ من صلى عليه أو سلمَ من الأنامِ

عن أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسولَ الله ﷺ قال: «ما من أحدٍ يُسلِّم عليَّ إلا ردَّ الله عليَّ روحي حتى أردَّ عليه السلامَ»(١).

وعن ابن مسعودٍ: «إن لله ملائكةً سياحين في الأرض، يبلِّغوني عن أمتي السلامَ»(٢).

وفي حديث أوسٍ: «أكثِروا عليَّ من الصلاة يوم الجمعةِ؛ فإن صلاتَكم معروضةٌ عليَّ»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٤١).

(٢) أخرجه النسائي (١٢٨٢).

(٣) أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، وابن ماجه (١٠٨٥)، والنسائي (١٣٧٤).

٧- فصل في الاختلاف في الصلاة على غيرِ النبي ﷺ، وسائرِ الأنبياء عليهم السلامُ

والذي ذهبَ إليه المحققونَ وأميلُ إليه: ما قاله مالك[(١)] وسفيان[(٢)] رحمهما الله، ورُوي عن ابن عباس[(٣)]، واختاره غيرُ واحدٍ من الفقهاء والمتكلمين أنه لا يُصلَّى على غير الأنبياءِ عند ذكرهم، بل هو شيءٌ يَختص به الأنبياء توقيرًا لهم وتعزيزًا، كما يَخص الله تعالى عند ذكره بالتنزيه والتقديسِ والتعظيم، ولا يشاركُه فيه غيره، كذلك يجب تخصيصُ النبي ﷺ وسائرِ الأنبياء بالصلاة والتسليم، ولا يشاركُهم فيه سواهم كما أمرَ الله به بقوله: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ويُذكَرُ مَن سواهم من الأئمةِ وغيرهم بالغفران والرِّضى كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ...﴾ [التوبة: ١٠٠].

وأيضًا: فهو أمرٌ لم يكن معروفًا في الصدر الأول، كما قال أبو عمرانَ، وإنما أحدَثه الرافضةُ والمتشيعة في بعض الأئمة، فشاركوهم عند الذكرِ لهم بالصلاة، وساوَوهم بالنبي ﷺ في ذلك.

---

(١) انظر: البيان والتحصيل لابن رشد الجد ١٨/ ٦٠٢.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٢/ ٢١٦ (٣١١٩).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٢/ ٢١٦ (٣١١٩)، وابن أبي شيبة ٢/ ٢٥٤ (٨٧١٦).

وأيضًا: فإن التشبه بأهل البدعِ منهيٌّ عنه، فتجب مخالفتُهم فيما التزموه من ذلك، وذكرُ الصلاة على الآل والأزواج مع النبي ﷺ بحكم التبعِ والإضافةِ إليه، لا على التخصيص.

قالوا: وصلاةُ النبي ﷺ على من صلى عليه مَجراها مجرى الدعاءِ والمواجهةِ، ليس منها معني التعظيمِ والتوقيرِ، قالوا وقد قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] وكذلك يجب أن يكونَ الدعاءُ له مخالفًا لدعاء الناسِ بعضِهم لبعض، وهذا اختيارُ الإمام أبي المظفَّر الإسفراييني أحد شيوخنا، وبه قال ابنُ عبد البرِّ[(١)].

(١) الاستذكار لابن عبد البر ٢/ ٣٢٤-٣٢٥.

٨- فصل فيما يَلزَم مَن دخَل مسجد النبيِّ ﷺ من الأدَب وفَضْله وفَضْل الصلاة فيه وفي مسجد مكَّةَ، وفضل سُكنى المدينة ومكةَ

قال الله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨] الآيات، رُوِيَ أن النبي ﷺ سُئِل: أيُّ مسجد هو؟ قال: «**مَسْجِدي هَذا**»(١).

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «**لَا تُشَدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثَلاثةِ مَساجِدَ: المَسجِدِ الحَرامِ، وَمَسْجِدي هَذا، وَالمَسْجِدِ الأَقْصَى**»(٢).

وعن عبدِ الله بن عمرِو بنِ العاص أن النبيَّ ﷺ كان إذا دخَل المسجدَ قال: «**أَعُوذُ بالله العَظيمِ، وَبِوَجْهِهِ الكَريمِ، وَسُلْطانِهِ القَديمِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ**»(٣).

وقال مالكٌ رحمه الله: سَمع عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ صوتًا في المسجد فدعا بصاحبِه فقال: ممن أنت؟ فقال: رجلٌ من ثقيفَ، قال: لو كنتَ من هاتين القريتين لأدبتُك؛ إن مسجدَنا هذا لا يُرفع فيه الصوتُ(٤).

قال محمد بن مسلمةَ: لا ينبغي لأحد أن يعتمدَ المسجد برفع الصوتِ ولا بشيء من الأذى، وأن يُنزه عما يكره.

حكى ذلك كلَّه القاضي إسماعيلُ في مبسوطه في باب: فضلِ مسجد النبي ﷺ، والعلماءُ كلهم متفقون على أن حُكمَ سائرِ المساجدِ هذا الحكمُ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٦).

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٠).

وقال أبو هريرةَ عنه عليه السلام: «**صَلاةٌ في مَسْجِدي هَذا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فيما سِوَاهُ إِلَّا المَسْجِدَ الحَرامَ**»[(١)].

واحتَجوا بحديث عبدِ الله بن الزبير عن النبي ﷺ بمثلِ حديث أبي هريرةَ وفيه: «**وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضلُ من الصلاةِ في مسجدي هذا بمِئةِ صلاةٍ**»[(٢)].

ورَوى قَتادةُ مثلَه[(٣)]، فيأتي فضلُ الصلاة في المسجدِ الحرام على هذا على الصلاة في سائر المساجدِ بمِئة ألفٍ.

وقال ﷺ: «**ما بين بَيتي ومِنبري روضةٌ من رياض الجنةِ**»[(٤)].

وقولُه: «**روضةٌ من رياض الجنةِ**» يَحتمل معنيين: **أحدُهما**: أنه موجبٌ لذلك، وأن الدعاءَ والصلاةَ فيه يستحق ذلك من الثواب.

والثاني: أن تلك البقعةَ قد ينقلُها الله فتكون في الجنة بعينِها.

وروى ابنُ عمرَ وجماعة من الصحابة أن النبيَّ ﷺ قال في المدينة: «**لا يَصْبِرُ عَلى لَأْوَائِها وَشِدَّتِها أَحَدٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَهيدًا، أَوْ شَفيعًا يَوْمَ القِيامَةِ**»[(٥)].

وقال فيمن تَحمَّل عن المدينةِ: «**وَالمَدينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كانوا يَعْلَمونَ**»[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤).
(٢) أخرجه أحمد ٢٦/ ٤١ (١٦١١٧).
(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٥/ ١٢٢ (٩١٣٨).
(٤) أخرجه البخاري (١١٩٦)، ومسلم (١٣٩١).
(٥) أخرجه مسلم (١٣٧٧).
(٦) أخرجه البخاري (١٨٧٥)، ومسلم (١٣٨٨).

وقال: «إِنَّما المَدينةُ كالكِيرِ تَنْفي خَبَثَها وَيَنصَعُ طِيبها»[(١)].

وقال: «لا يخرجُ أحدٌ من المدينة رغبةً عنها إلا أبدلها الله خيرًا منه»[(٢)].

وعن ابنِ عمرَ: «من استطاع أن يموتَ بالمدينةِ فليمُت بها؛ فإني أشفعُ لمن يموت بها»[(٣)].

(١) أخرجه البخاري (١٨٨٣)، ومسلم (١٣٨٣).

(٢) أخرجه مالك ٢/ ٨٨٧ (٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٩١٧)، وابن ماجه (٣١١٢).

القِسْم الثالِث: فيما يَجِب للنبيِّ ﷺ، وما يَستَحيل في حَقِّه أو يَجوز عليه، وما يَمتنِع أو يَصِحُّ من الأحوال البشَرية أن تُضاف إليه

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

فمُحمَّد ﷺ وسائرُ الأنبياء من البشَرِ أُرسِلوا إلى البشَر، ولولا ذلك لما أَطاق الناسُ مُقاوَمتهم والقبولَ عنهم ومُخاطَبتهم، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]، أي: لما كان إلَّا في صورة البشَر الذين يُمكِنكم مُخالطتُهم؛ إذ لا تُطيقون مُقاومة المَلَك ومُخاطبته ورُؤيته إذا كان على صورته، وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥]، أي: لا يمكن في سُنة الله إرسالُ المَلَك إلَّا لِمَن هو من جنسه، أو مَن خصَّه الله تعالى واصطفاه وقوَّاه على مُقاومته كالأَنبياء والرسُل.

فالأنبياء والرسُل عليهم السلام وسائطُ بين الله تعالى وبين خَلْقه، يُبلِّغونهم أوامرَه ونواهيَه، ووعدَه ووعيدَه، ويُعرِّفونهم بما لم يَعلَموه من أَمْره وخَلْقه وجلاله وسُلطانه وجَبروته ومَلكوته، فظَواهرُهم وأجسادُهم وبِنيتُهم مُتَّصفة بأوصاف البشَر، طارِئ عليها ما يَطرَأ على البشَر من الأعراض والأسقام والموت والفَناء ونُعوت الإنسانية وأرواحهم. وبواطنُهم مُتَّصفة بأعلى من أَوْصاف البشَر مُتعلِّقة بالملأ الأَعلى، مُتشبِّهة بصفات الملائكة، سَليمة من التغيُّر والآفات، لا يَلحقها غالبًا عجزُ البشَرية ولا ضَعْف الإنسانية، إذ لو كانت بواطِنُهم خالِصةً للبَشرية كظواهِرهم لما أَطاقوا الأخذَ عن الملائكة ورُؤيتهم لهم ومُخاطبتهم إياهم ومُخالطتهم كما لا يُطيقه غيرهم من البشَر، ولو كانت أَجسامُهم وظواهِرُهم مُتَّسِمة بنُعوت الملائكة وبخِلاف صفات البشَر؛ لما أَطاق البشَر ومَن أُرسِلوا إليه مُخالطتَهم كما تَقدَّم من قول الله تعالى.

فجُعِلوا من جهة الأجسام والظواهِر مع البشَر، ومن جهة الأرواحِ والبواطِن مع الملائِكة.

كما قال عليه السلام: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبا بَكْرٍ خَليلًا، ولَكِنْ أُخوَّةُ الإِسلامِ، لكِنْ صاحِبُكُمْ خَليلُ الرَّحْمنِ**»(١).

وكما قال: «**تَنامُ عَيْنايَ وَلا يَنامُ قَلْبي**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠١٣)، ومسلم (٧٣٨)، وأبو داود (٢٠٢)، والترمذي (٢٢٤٨).

وقال: «**إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُم، إِنِّي أَظَلُّ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**»(١)، فبواطِنُهم مُنزَّهة عن الآفات، مُطهَّرة من النقائِص والاعتِلالات، وهذه جُملة لن يَكتفيَ بمَضمونها كلُّ ذِي هِمَّة، بل الأكثرُ يَحتاج إلى بَسْط وتفصيل على ما نَأتِي به بعدَ هذا في البابين بعَوْن الله، وهو حَسْبي ونِعمَ الوكيلُ.

(١) أخرجه البخاري (١٩٢٢)، ومسلم (١١٠٢).

الباب الأوَّل فيما يَختصُّ بالأمور الدينية والكلام في عِصمة نبيِّنا عليه الصلاة والسلام وسائِر الأنبياء صلوات الله عليهم

اعلَمْ أن الطوارئَ من التَّغيُّرات والآفات على آحاد البشَر لا يَخلو أن تَطرَأ على:

١- جِسْمه أو على حَواسِّه بغير قَصْد واختيار، كالأمراض والأسقام.

٢- أو تَطرَأ بقَصْد واختيار.

وكلُّه في الحقيقة عمَل وفِعْل، ولكن جرَى رسمُ المشايخ بتَفصيله إلى ثلاثة أنواعٍ:

- **عَقْد بالقَلْب.**
- **وقول باللِّسان.**
- **وعمَل بالجوارِح.**

وجميعُ البشَر تَطرَأ عليهمُ الآفات والتغيُّرات بالاختيار وبغَيْر الاختيار في هذه الوجوهِ كلِّها، والنبيُّ ﷺ وإن كان من البشَر ويَجوز على جِبِلَّته ما يَجوز على جِبِلَّة البشر، فقد قامت البراهين القاطِعة وتمتْ كلِمةُ الإجماعِ على خُروجه عنهم وتَنزيهِه عن كثير من الآفاتِ الَّتي تَقَع على الاختِيار وعلى غير الاختِيار كما سنُبيِّنه -إن شاء اللهُ- فيما نَأتِي به من التَّفاصيل.

١- فصل في حُكم عَقْد قلب النبيِّ ﷺ من وَقْت نبوَّته

اعلَمْ -منَحنا اللهُ إياكَ تَوفيقَه- أن ما تَعلَّق منه بطريق التوحيد والعِلم بالله وصِفاته والإيمان به، وبما أُوحِيَ إليه، فعلى غايةِ المَعرِفةِ ووُضوح العِلْم واليقين، والانتِفاء عن الجهل بشيءٍ من ذلك أو الشك أو الريب فيه، [و]العِصمة من كلِّ ما يُضادُّ المعرفة بذلك واليَقين، هذا [ما وقع] إجماع المسلِمين عليه، ولا يَصِحُّ بالبراهين الواضِحة أن يَكون في عُقود الأنبياء سِواهُ.

٢- فصل [في عصمتهم من هذا الفنِّ قبلَ النبوة]

وأما عصمتهم من هذا الفنِّ قبلَ النبوة فللناسِ فيه خلاف؛ والصوابُ أنهم معصومون عليهم السلام قبل النبوة من الجهل بالله، وصِفاته، والشكِّ في شيء من ذلك، وقد تعاضَدتِ الأخبارُ والآثار عن الأنبياء بتَنزيههم عن هذه النقيصةِ منذُ وُلِدوا ونَشْأتهم على التوحيدِ والإيمان.

ولم يَنقل أحدٌ من أهل الأخبار أن أحدًا نُبِّئَ واصطُفي ممن عُرف بكفرٍ وإشراك قبل ذلك، ومستندُ هذا الباب النقلُ، وقد استدل بعضُهم بأن القلوبَ تنفر عمن كانت هذه سبيلُه.

وأنا أقول: إن قريشًا قد رمت نبينا عليه السلام بكل ما افترته، وغير كفارُ الأمم أنبياءَها بكل ما أمكنها واختلقَته مما نص الله تعالى عليه، أو نقلته إلينا الرواةُ، ولم نجد في شيء من ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهتَه، وتقريعه بذَمِّه بتركِ ما كان قد جامعَهم عليه، ولو كان هذا لكانوا بذلك متبادرين، وبتلونه في

معبوده مُحتجين، ولكان تَوبيخُهم له بنهيهم عما كان يعبدُ قبلُ أفظعَ وأقطعَ في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركهم آلهتَهم وما كان يعبدُ آباؤهم من قبلُ.

ففي إطباقِهم على الإعراضِ عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلًا إليه، إذ لو كان لنُقِلَ ولَمَا سكتوا عنه، كما لم يسكُتوا عند تحويلِ القبلةِ وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢] كما حكاه الله عنهم.

٣- فصل [فيما كان من أمر الدنيا]

فأمَّا ما تعلَّق منها بأمر الدنيا فلا يُشتَرَط في حقِّ الأنبياء العِصمة من عدم معرِفة الأنبياء ببعضها أو اعتِقادها على خِلاف ما هي عليه، ولا وصمَ عليهم فيه إذ هِمَمهم متعلِّقة بالآخرةِ وأنبائها، وأمرِ الشريعة وقوانِينها، وأمور الدنيا تُضادُّها، بخِلاف غيرِهم من أهل الدنيا الذين ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم: ٧].

ولكنه لا يُقال: إنهم لا يعلمون شيئًا من أمر الدنيا، فإن ذلك يُؤدِّي إلى الغفلة والبلَهِ، وهم المُنزَّهون عنه، بل قد أُرسِلوا إلى أهل الدنيا، وقُلِّدوا سياستهم وهِدايتهم، والنظر في مصالح دِينهم ودُنياهم، وهذا لا يَكون مع عدَم العِلم بأمور الدنيا بالكُلِّية، وأحوالُ الأنبياء وسِيَرهم في هذا الباب مَعلومة ومعرفتُهم بذلك كلِّه مشهورة، وأمَّا إن كان هذا العقدُ مما يتعلقُ بالدِّين فلا يَصِحُّ من النبيِّ ﷺ إلَّا العِلم به ولا يَجوز عليه جهله جملةً.

٤- فصل [في عِصمة النبيِّ ﷺ من الشيطان وكِفايته منه]

واعلَمْ أن الأُمَّة مُجتمِعة على عِصمة النبيِّ ﷺ من الشيطان وكِفايته منه لا في جِسمه بأنواع الأذى ولا على خاطِره بالوَساوِس.

فعن عبدِ الله بنِ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنكُم مِن أحَدٍ إلَّا وقد وُكِّلَ بِهِ قَرينُه مِنَ الجِنِّ وقَرينُه مِنَ المَلائِكةِ**»، قالوا: وإيَّاك يا رَسولَ الله؟ قال: «**وَإِيَّايَ، ولَكِنَّ اللهَ تَعالى أَعانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ؛ فَلا يَأْمُرُني إلَّا بِخَيْرٍ**»[(١)]، روِيَ: فأَسلَمُ. بضَمِّ الميم، أي: فأَسلَمُ أنا منه، وصحَّح بعضُهم هذه الروايةَ ورجَّحها، وروِيَ: فأسلَمَ. يَعنِي: القرينَ، أنه انتَقَل عن حال كُفره إلى الإسلامِ فصار لا يَأمُر إلَّا بخَيْر كالملَك.

فإذا كان هذا حُكْم شَيْطانه وقَرينه المسلط على بني آدَمَ فكيف بمَن بعُد منه، ولم يَلزَم صُحبته، ولا أُقدِر على الدنوِّ منه؟! وقد جاءتِ الآثارُ بتَصدِّي الشياطين له في غير مَوطِن رغبة في إطفاءِ نوره، وإماتة نفسه، وإدخال شُغل عليه إذ يَئِسوا من إغوائه فانقَلبوا خاسِرين، كتَعرُّضه له في صَلاته، فأخَذَه النبيُّ ﷺ وأَسَره، قال أبو هريرةَ عنه عليه السلام: «**إنَّ الشَّيْطَانَ عَرَضَ لي في صُورةِ هِرٍّ، فَشَدَّ عَلَيَّ يَقطَع عليَّ الصلاةَ، فأَمكَنَني اللهُ مِنهُ فذَعَتُّهُ، ولقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُوثِقَهُ إلى سارِيةٍ مِن سَواري المَسجِدِ حتَّى تُصبِحوا تَنْظُرونَ إلَيهِ، فذَكَرْتُ قولَ أَخي سُلَيْمانَ:** ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥] **الآيَةَ، فَرَدَّهُ اللهُ خاسِئًا**»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١).

٥- فصل [في قول اللسان]

وأمَّا أقوالُه عليه السلام فقامتِ الدلائلُ الواضحةُ بصِحَّة المُعجِزة على صِدْقه، وأَجمَعت الأُمَّة فيما كان طَرِيقُه البلاغَ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيءٍ منها بخِلاف ما هو به، لا قصدًا ولا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا.

عن عبدِ الله بنِ عمرٍو: قلتُ: يا رسول الله، أكتُب كلَّ ما أَسمَع منك؟ قال: «**نعَمْ**»، قلتُ: في الرِّضا والغضَب؟ قال: «**نعَمْ، فَإِنِّي لا أَقولُ في ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَّا حَقًّا**»[1].

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم: ٣ - ٤]، ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [النساء: ١٧٠]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]، فلا يَصِحُّ أن يُوجَد منه في هذا البابِ خبَرَ بخِلاف مخبَره على أيِّ وجه كانَ.

٦- فصل [فيما سَبيله سبيلُ البلاغ]

هذا القولُ فيما طريقه البلاغُ، وأمَّا ما ليس سَبيله سبيلُ البلاغ من الأخبار الَّتي لا مُستندَ لها إلى الأحكام ولا أخبار المعاد، ولا تُضاف إلى وحيٍّ، بل في أمور الدنيا وأَحوال نَفْسه فالذي يَجِب اعتقاده تنزيهُ النبيِّ ﷺ عن أن يقَع خبرُه في شيء من ذلك بخِلاف مخبَره لا عمدًا ولا سهوًا ولا غلَطًا، وأنه مَعصوم من ذلك في حال رِضاه، وفي حال سخطِه وجِدِّه ومَزْحه وصِحَّته ومرَضه، ودليل ذلك اتِّفاقُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤٦).

السلَف وإجماعهم عليه، وذلك أنا نَعلَم من دِين الصحابة وعادتهم مُبادرتهم إلى تصديقِ جميع أحوالِه والثِّقة بجميع أَخباره في أيِّ باب كانت، وعن أيِّ شيء وقَعَت، وأنه لم يَكُن لهم تَوقُّف ولا تَردُّد في شيء منها، ولا استِثبات عن حاله عند ذلك هل وقَع فيها سهوٌ أم لا.

ولما احتَجَّ ابنُ أبي الحُقيقِ اليَهوديُّ على عمرَ حين أَجْلاهم من خيبرَ بإقرار رسول الله ﷺ لهم، واحتَجَّ عليه عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله ﷺ: «**كَيْفَ بِكَ إِذا أُخْرِجْتَ مِنْ خَيْبَرَ؟**» فقال اليهوديُّ: كانت هزيلة من أبي القاسِم. فقال عُمرُ: كذَبْت يا عَدوَّ الله![1].

ولو كان ذلك لنُقِل كما نُقِل من قِصَّته عليه السلام في رجوعُه ﷺ عمَّا أَشار به على الأنصار في تَلقيح النَّخْل[2]، وكان ذلك رأيًا لا خبَرًا.

وأيضًا فإن الكذِبَ متى عُرِف من أحَد في شيءٍ من الأخبار بخِلاف ما هو على أيِّ وجهٍ كان، استريب بخبَره واتُّهِم في حديثه، ولم يَقَع لقوله في النفوس موقع؛ ولهذا ترَك المُحدِّثون والعلماء الحديثَ عمَّن عُرِف بالوهم والغفلة، وسُوء الحِفظ، وكثرة الغلَط مع ثِقته، وأيضًا فإن تعمُّدَ الكذبِ في أمور الدنيا مَعصية، والإكثار منه كَبيرة بإجماعٍ، مُسقِط للمروءة وكل هذا ممَّا يُنزَّه عنه منصِب النبوةِ.

وانظُرْ أحوال عَصْر النبيِّ ﷺ من قُرَيْش وغيرها من الأُمَم وسُؤالهم عن حاله في صِدْق لِسانه، وما عُرِّفوا به من ذلك، واعترَفوا به مما عُرِف، واتَّفَق النقلُ على عِصمة نبيِّنا ﷺ منه قبلُ وبعدُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٦٢).

٧- فصل [في عمل الجوارح]

وأمَّا ما يَتعلَّق بالجوارح من الأعمال ولا يَخرُج من جُملتها القول باللسان فيما عدا الخبرَ الَّذي وقَع فيه الكلامُ، والاعتِقاد بالقلب فيما عدا التوحيدَ، وما قدَّمناه من معارفه المختَصَّة به، فأَجمَع المسلمون على عِصمة الأنبياء من الفَواحِش والكبائر المُوبِقات، ومُستَنَدُ الجمهور في ذلك الإجماعُ.

وكذلك لا خِلافَ أنهم مَعصومون من كِتمان الرسالة والتقصير في التَّبليغ.

وأمَّا الصغائر فجوَّزها جماعةٌ من السلَف وغيرهم على الأنبياءِ.

وذهَبَت طائِفةٌ أخرى إلى الوقفِ، وقالوا: العقلُ لا يُحيلُ وقوعَها منهم، ولم يأتِ في الشَّرعِ قاطعٌ بأحدِ الوجهين.

وذهَبَت طائِفةٌ أخرى من المُحقِّقين من الفُقهاء والمُتكلِّمين إلى عِصمتِهم من الصغائر كعِصْمتهم من الكبائِر.

ومَن جوَّز الصغائر ومَن نفاها عن نبيِّنا عليه السلام مُجمِعون على أنه لا يُقِرُّ على مُنكَر من قول أو فعل وأنه متى رأى شيئًا فسكَت عنه ﷺ دلَّ على جوازِه، فكيف يَكون هذا حالَه في حقِّ غيرِه، ثم يَجوز وقوعُه منه في نَفْسه؟!

وأيضًا فقد علِم من دِين الصحابة قطعًا الاقتداءُ بأفعال النبيِّ ﷺ كيف تَوجَّهت، وفي كل فنٍّ كالاقتِداء بأقوالِه، فقد نبَذوا خواتِيمَهم حين نبذ خاتَمَه[(١)]،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٥١)، ومسلم (٢٠٩١).

وخلَعوا نِعالَهم حين خلَع نَعلَه[(١)]، واحتجاجهم برؤية ابنِ عمرَ إيَّاه جالسًا لقضاء حاجته مُستقبِلًا بيتَ المقدس[(٢)].

وأما المباحاتُ فجائز وقوعُها منهم، إذ ليس فيها قدحٌ، بل هي مأذونٌ فيها، وأيديهم كأيدي غيرهم مسلطة عليها، إلا أنهم بما خصوا به من رفيع المنزلة، وشُرِحَت لهم صدورُهم من أنوار المعرفة، واصطُفوا به من تعلُّقِ الهِمَمِ بالله والدارِ الآخرة لا يأخذون من المباحاتِ إلا الضروراتِ مما يتَقَوَّون به على سلوك طريقِهم وصلاحِ دينهم وضرورةِ دنياهم، وما أُخذ على هذه السبيلِ التَحَقَ بطاعةٍ، وصار قربة كما بينا منه أولَ الكتاب طرفًا في خصال نبينا عليه السلام، فبان لك عظيمُ فضلِ الله على نبينا عليه السلام، وعلى سائر أنبيائِه عليهم السلام بأن جعل أفعالَهم قرباتٍ وطاعات بعيدةً عن وجه المخالفةِ ورسم المعصيةِ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٦٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٥)، ومسلم (٢٦٦).

٨- فصل [في عِصمته ﷺ من المعاصي قبل النبوَّة]

وقدِ اختُلِف في عِصمتهم من المعاصي قبل النبوَّة؛ فمنَعها قوم، وجوَّزها آخرون، والصحيحُ -إن شاء الله- تَنزيهُهم من كل عَيْب وعِصمتُهم من كل ما يُوجِب الريب، فكيف والمَسأَلة تَصوُّرها كالمُمتنِع؟! فإن المعاصيَ والنواهيَ إنما تَكون بعد تَقرُّر الشرع، وقد اختلَف الناسُ في حال نبيِّنا عليه السلام قبلَ أن يُوحَى إليه: هل كان متبعًا لشرع قبلَه أم لا؟

فقال جماعة: لم يكن متبعًا لشيءٍ، وهذا قول الجمهور؛ فالمعاصي على هذا القولِ غيرُ موجودة ولا مُعتبَرة في حقِّه حينئذ، إذِ الأحكام الشرعية إنما تَتعلَّق بالأوامر والنواهي وتقرُّرِ الشريعة.

وقالت فرقةٌ أخرى بالوقف في أمره عليه السلام، وتركِ قطع الحكمِ عليه بشيءٍ في ذلك، إذ لم يحل أحد الوجهين منها العقلُ، ولا استبان عندنا في أحدهما طريقُ النقل، وهو مذهبُ أبي المعالي.

وقالت فرقةٌ ثالثة: إنه كان عاملًا بشرع مَن قبله، ثم اختلوا هل يَتعين ذلك الشرعُ أم لا، فوقف بعضُهم عن تعيينه وأحجمَ، وجسرَ بعضُهم على التعيين وصمم، ثم اختلفَت هذه المُعيِّنة فيمن كان يتبعُ، فقيل: نوحُ. وقيل: إبراهيمُ. وقيل: موسى. وقيل: عيسى صلواتُ الله عليهم، فهذه جملةُ المذاهب في هذه المسألة، والأظهرُ فيها ما ذهب إليه القاضي أبو بكر، وأبعدُها مذاهبُ المعيِّنين.

٩- فصل [في السهو والنسيان في الوظائف الشرعية]

هذا حُكم ما تَكون الُمخالفة فيه من الأعمال عن قصدٍ وهو ما يُسمَّى معصيةً، ويدخل تحت التكليفِ، وأما ما يَكون بغير قصدٍ وتعمدٍ كالسهو والنسيانِ في الوظائف الشرعيةِ ممَّا تقرَّر الشرعُ بعدم تعلُّق الخطابِ به وترك المؤاخَذةِ عليه، فأحوالُ الأنبياء عليهم السلام في ترك الُمؤاخَذة به، وكونه ليس بمَعصية لهم مع أُمَمهم سواء، ثم ذلك على نوعين: ما طريقُه البلاغ، وتقريرُ الشرع، وتعلقُ الأحكام، وتعليمُ الأمة بالفعل، وأخذهم باتباعِه فيه، وما هو خارجٌ عن هذا مما يختص بنفسِه.

أما الأولُ: فحكمُه عند جماعةٍ من العلماء حكمُ السهوِ في القول في هذا الباب، وقد ذكرنا الاتفاقَ على امتناع ذلك في حقِّ النبي ﷺ وعصمتِه من جوازِه عليه قصدًا أو سهوًا، فكذلك قالوا: الأفعالُ في هذا الباب لا يجوزُ طُرُوُّ المخالفة فيها لا عمدًا ولا سهوًا؛ لأنها بمَعني القولِ من جهةٍ التبليغِ والأداءِ، وطُرُوُّ هذه العوارضِ عليها يوجبُ التشكيكَ ويسببُ المطاعنَ، واعتذروا عن أحاديثِ السهو بتوجيهاتٍ نذكرُها بعدَ هذا، وإلى هذا مال أبو إسحاقَ الإسفراييني.

وذهب الأكثرُ من الفقهاء والمتكلمين إلى أن المخالفةَ في الأفعالِ البلاغية والأحكامِ الشرعية سهوًا وعن غير قصدٍ منه جائزةٌ عليه كما تقرر من أحاديث السهوِ في الصلاة، وفرَّقوا بين ذلك وبين الأقوالِ البلاغية لقيام المعجزةِ على الصدق في القول، ومخالفةُ ذلك يناقضُها، وأما السهو في الأفعالِ فغيرُ مناقض لها،

ولا قادحٍ في النبوة، بل غلطاتُ الفعل وغفلاتُ القلب من سماتِ البشر، كما قال عليه السلام: «**إنما أنا بشرٌ أَنسى كما تَنسون فإذا نَسيت فذَكروني**»[(١)].

وأما ما ليس طريقُه البلاغَ ولا بيانَ الأحكام من أفعالِه عليه السلام وما يختصُّ به من أمور دينه وأذكارِ قلبه مما لم يفعله ليُتبع فيه، فالأكثرُ من طبقات علماء الأمةِ على جواز السهوِ والغلط عليه فيها، ولحوقِ الفترات والغفلاتِ بقلبه، وذلك بما كُلِّفَه من مُقاساةِ الخلق وسياساتِ الأمة، ومعاناةِ الأهل، وملاحظةِ الأعداء، ولكن ليس على سبيل التَّكرارِ ولا الاتصالِ، بل على سبيل الندورِ كما قال عليه السلام: «**إنه ليُغان على قلبي فأستغفرُ الله**»[(٢)].

وليس في هذا شيءٌ يَحطُّ من رُتبته ويُناقض معجزته، وذهبت طائفةٌ إلى منع السهوِ والنسيانِ والغفلات والفترات في حقه عليه السلام جملة، وهو مذهبُ جماعة المتصوفةِ وأصحابِ علم القلوبِ والمقامات.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

١٠- فصل في الكَلام على الأحاديث المذكور فيها السهوُ منه ﷺ

الصحيحُ من الأحاديث الوارِدة في سَهْوه ﷺ في الصلاة ثلاثة أحاديثَ: **أوَّلها**: حديثُ ذي اليدين في السَّلام مِن اثنتَيْن[(١)]، **الثاني**: حديثُ ابنِ بُحينةَ في القيام من اثنتين[(٢)]، الثالث: حديثُ ابن مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن النبي ﷺ صلى الظهرَ خمسًا[(٣)].

وهذه الأحاديثُ مبنيَّةٌ على السهوِ في الفعل الذي قررناه، وحِكمة الله فيه ليَستنَّ به، إذِ البلاغُ بالفعل أَجلى منه بالقول، وأرفَعُ للاحتِمال؛ وشرطُه أنه لا يُقَرُّ على السهو؛ بل يشعرُ به ليَرتفِعَ الالتباسُ، وتظهرَ فائدةُ الحكمة فيه كما قدَّمناه؛ وإن النسيانَ والسهوَ في الفعلِ في حقِّه عليه السلام غيرُ مضادٍّ للمُعجِزة، ولا قادحٍ في التصديقِ.

وقد قال عليه السلام: «**إنَّما أَنا بَشَرٌ مِثلُكُم أَنسَى كما تَنسَوْن؛ فإذا نَسِيتُ فذَكِّروني**»[(٤)].

وقال ﷺ: «**رحِمَ اللهُ فُلانًا؛ لقَدْ أَذكَرَني كَذا وكَذا آيةً، كُنتُ أَسقَطْتُهُنَّ**»[(٥)]، ويُروَى: «**أُنسِيتُهُنَّ**».

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٨٢٩)، ومسلم (٥٧٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٢٦)، ومسلم (٥٧٢).

(٤) أخرجه البخاري (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢).

(٥) أخرجه البخاري (٥٠٣٨)، ومسلم (٧٨٨).

١١- فصل [في عظم أمر عصمة الأنبياء وفوائد ذلك]

قد استَبانَ لك أيها الناظرُ بما قرَّرْناه ما هو الحق من عِصمتُه عليه السلام عن الجهلِ بالله وصِفاته أو كونه على حالةٍ تُنافِي العِلْم بشيء من ذلك كلِّه جملة بعد النُّبُوَّة عقلًا وإجماعًا، وقبلها سمعًا ونقلًا ولا بشَيءٍ مِمَّا قرَّرْه من أمور الشرع، وأدَّاه عن ربه من الوحيِ قطعًا وعقلًا وشرعًا، وعصمتُه عن الكذِب وخُلف القول منذُ نبَّأه الله وأَرسَله قصدًا أو غير قصدٍ، واستحالة ذلك عليه شرعًا وإجماعًا ونظرًا وبرهانًا، وتنزيهه عنه قبل النبوة قطعًا، وتنزيهه عن الكبائر إجماعًا، وعن الصغائر تحقيقًا، وعن استِدامة السهو والغفلة واستمرار الغلَط والنسيان عليه فيما شَرَعه للأُمَّة، وعِصمته في كل حالاتِه من رِضًا وغضَب وجِدٍّ ومَزْح.

فيَجِب عليك أن تَتلقَّاه باليمين، وتشد عليه يد الضنين، وتَقدُر هذه الفصول حق قَدْرها، وتعلم عظيم فائدتها وخطرها، فإن مَن يَجهل ما يَجب للنبيِّ ﷺ أو يَجوز له أو يَستحيل عليه ولا يَعرف صوَر أحكامِه لا يَأمَن أن يَعتقِد في بعضها خِلافَ ما هي عليه، ولا يُنزِّهه عما لا يَجِب أن يُضاف إليه؛ فيَهلِك من حيثُ لا يَدري، ويَسقُط في هوَّة الدرك الأسفلِ من النار، إذْ ظنُّ الباطل به واعتقادُه ما لا يَجوز عليه يُحِلُّ بصاحبه دارَ البوارِ؛ ولهذا ما احتاط عليه السلام على الرجُلين اللَّذين رأيَاه ليلًا وهو معتكِف في المسجدِ مع صَفيةَ فقال لهما: «**إنَّهَا صَفيَّةُ**»، ثُم قال لهما: «**إنَّ الشَّيْطانَ يَجرِي مِنِ ابنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُما شَيْئًا فَتَهْلِكا**»[١].

(١) أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).

هذه -أَكرَمك اللهُ- **إحدى فوائدِ ما تَكلَّمنا عليه.**

وفائِدة ثانية: يُضطَرُّ إليها في أصول الفِقه، ويُبنى عليها مسائلُ لا تنعقدُ من الفقه ويُتخلَّص بها من تَشغيب مُختلِفي الفقهاء في عِدة منها، وهي الحُكم في أقوال النبيِّ ﷺ وأَفعاله، وهو بابٌ عظيمٌ وأصلٌ كبير من أصول الفِقه، ولا بُدَّ من بِنائه على صِدق النبيِّ ﷺ في إخباره وبَلاغه، وأنه لا يَجوز عليه السهو فيه، وعِصمته من المُخالفة في أفعاله عمدًا.

وبحسب اختِلافهم في وُقوع الصغائرِ وقَع خِلاف في امتثال الفِعل بُسِط بيانه في كُتِب ذلك العِلمِ، فلا نُطول به.

وفائدة ثالثة: يَحتاج إليها الحاكم والمُفتِي فيمَن أَضاف إلى النبيِّ ﷺ شيئًا من هذه الأمورِ ووصَفه بها، فمن لم يَعرِف ما يَجوز وما يَمتنع عليه، وما وقَع الإجماع فيه والخلافُ، كيف يصمم في الفُتيا في ذلك؟ ومن أين يَدرِي هل ما قاله فيه نَقْص أو مَدْح؟ فإما أن يَجترِئ على سَفْك دم مُسلِم حرام أو يُسقِط حقًّا أو يُضيِّع حُرمة للنبيِّ عليه السلام؟

١٢- فصل في القول في عِصمة الملائكة عليهم السلام

أجمع المسلِمون على أن الملائكة مُؤمِنون فُضَلاءُ، واتَّفق أئمة المسلمين أن حُكم المرسلين منهم حُكم النبيِّين سواءٌ في العِصمة كما ذكَرنا عِصمتهم منه، وأنهم في درجاتِ الأنبياء وحقوقهم، والتبليغ إليهم كالأنبياء مع الأمَم، واختلفوا في غير المُرسَلين منهم: فذهَبت طائفة إلى عِصمة جميعهم عن المعاصي، واحتَجُّوا بقوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وبقولِه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٤ - ١٦٦]، وبقولِه: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩- ٢٠]، وبقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وبقولِه: ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٦]، و﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٩]، ونحوه من الآيات.

وذهَبت طائفة إلى أن هذا خُصوص للمرسلين مِنهم والمُقرَّبين، واحتجُّوا بأشياءَ ذكَرها أهل الأخبار والتفاسيرِ، والصوابُ عِصمة جميعهم وتنزيهُ جنابِهم الرفيعِ عن جميع ما يَحُطُّ من رُتبتهم ومَنزِلتهم عن جليل مِقدارهم، ورأيت بعض شُيوخنا أَشار إلى أن لا حاجةَ للفَقيه بالكَلام في عِصمتهم.

الباب الثاني من القسم الثالث: فيما يَخُصُّهم في الأمور الدُّنيوية ويَطرأ عليهم من العَوارِض البشرية

قد قدَّمنا أنه ﷺ وسائر الأنبياء والرسُل من البشر، وأن جِسمه وظاهِره خالص للبشَر يَجوز عليه من الآفات والتغييرات والآلام والأسقام وتَجرُّع كأس الحِمام ما يَجوز على البشَر، وهذا كلُّه ليس بنقيصة فيه؛ لأن الشيء إنما يُسمَّى ناقِصًا بالإضافة إلى ما هو أتمُّ منه وأكملُ من نوعه.

وقد كتَب الله تعالى على أهل هذه الدارِ ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥] وخلَق جميع البشَر بمَدرَجةِ الغِيَرةِ، فقد مرِض ﷺ واشتكى، وأصابَه الحَرُّ والقَرُّ، وأَدرَكه الجوعُ والعطَشُ، ولحِقَه الغضبُ والضجَرُ، وناله الإعياءُ والتعَبُ، ومسَّه الضَّعف والكِبَر، وسقَط فجُحِش شقُّه، وشجَّه الكفار، وكسروا رَباعيَّتَه، وسُقِي السَّمَّ، وسُحِر، وتداوى عليه السلام واحتَجَم، وتَنشَّر[(١)] وتَعوَّذ، ثم قضَى نَحبَه، فتوفِّيَ ﷺ ولحِق بالرفيق الأعلى، وتخلَّص من دار الامتِحان والبلوى.

وهذه سِمات البشَر التي لا مَحيصَ عنها، وأصاب غيرَه من الأنبياء ما هو أعظمُ من ذلك، فقُتِلوا قتلًا، ورُموا في النار، ونُشِروا بالمناشير، ومنهم مَن وقاه الله ذلك في بعض الأوقات، ومنهم مَن عصَمه الله عز وجل كما عصَم بعدُ نبيَّنا ﷺ من الناس، فلئن لم يَكفِ نبيَّنا ربُّه يدَ ابن قمئةَ يوم أحُد ولا حجَبه عن عُيون عِداه عند دَعوته أهلَ الطائف، فلَقَدْ أخَذ على عيون قُريش عِند خروجه إلى ثَوْر،

---

(١) (تَنَشَّرَ) النشرة: الرقية.

وأَمسَك عنه سيفَ غَورَث وحجَرَ أبي جهل وفرَسَ سُراقة، ولئن لم يَقِهِ من سِحر ابنِ الأعصمِ فلَقَدْ وقاه ما هو أعظمُ من سَمِّ اليهودية.

وهكذا سائر أنبيائه مُبتلًى ومُعافًى، وذلك من تَمام حِكمته؛ ليُظهِر شرَفهم في هذه المَقاماتِ ويُبين أمرَهم ويُتم كلِمته فيهم؛ وليحقق بامتحانهم بشَريتَهم، ويَرتفِع الالتباس عن أهل الضَّعْف فيهم؛ لئلا يَضِلُّوا بما يَظهَر من العَجائب على أيديهم ضَلالَ النصارى بعِيسَى ابنِ مَريمَ عليه السلام؛ وليكون في مِحَنِهم تسليةٌ لأُممهم ووُفورٌ لأُجورهم عند ربهم تمامًا على الذي أحسَنَ إليهم.

قال بعضُ المحققين: وهذه الطوارئ والتغييراتُ المذكورةُ إنما تختصُّ بأجسامِهم البشريةِ المقصودُ بها مقاومة البشر، ومعاناةُ بني آدمَ لمشاكلة الجنسِ، وأما بواطنُهم فمنزهةٌ غالبًا عن ذلك معصومةٌ منه متعلقةٌ بالملإ الأعلى والملائكةِ؛ لأخذها عنهم وتَلقيها الوحيَ منهم، قال: وقد قال عليه السلام: «**إن عينيَّ تنامان ولا ينامُ قلبي**»[1]. وقال: «**إني لستُ كهيئَتكم، إني أبيتُ يطعمني ربي ويَسقيني**»[2].

فصل [في أنه ﷺ قد سُحِرَ]

فإن قلت: فقد جاءت الأخبار الصحيحة أنه عليه السلام سُحِر.

فاعلَمْ -وفَّقنا الله وإياك- أن هذا الحديثَ صحيح مُتَّفق عليه، وقد طعَنت فيه المُلحدةُ، وتَذرَّعت به لسُخف عُقولها وتَلبيسها على أمثالها إلى التَّشكيك في

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٩٩)، ومسلم (١١٠٣).

الشرع، وقد نزَّه الله الشرعَ والنبيَّ عما يُدخِل في أمره لَبسًا، وإنما السِّحْر مرَض من الأمراض، وعارِض من العِلَل تَجوز عليه كأنواع الأمراض مما لا يُنكَر ولا يَقدَح في نبوته.

وأما ما ورَد أنه كان يُخيَّل إليه أنه فعَل الشيءَ ولا يَفعله، فليس في هذا ما يدخل عليه داخِلة في شيء من تَبليغه أو شريعته، أو يَقدَح في صِدقه لقيام الدليل والإجماع على عِصمته من هذا، وإنما هذا فيما يَجوز طُروؤُه عليه في أمر دُنياه التي لم يبعث بسببها.

ولم يأتِ في خبر منها أنه نُقل عنه في ذلك قول بخِلاف ما كان أخبَرَ أنه فعَله ولم يَفعَله، وإنما كانت خَواطرَ وتَخيُّلاتٍ.

هذا حالُه في جِسْمه، أمَّا أحواله في أمور الدنيا فنحن نَسبُرها على أسلوبها المُتقدِّم إن شاء الله بالعقد والقول والفِعْل.

١- [فصل في عقد القلب]

أمَّا العقد منها: فقد يعتقد في أمور الدنيا الشيء على وجه ويَظهَر خلافُه، أو يكون منه على شكٍّ أو ظنٍّ بخلاف أمور الشَّرْع.

عن رافع بن خَديجٍ قال: قدِم رسول الله ﷺ المدينة وهم يَأْبُرون النخلَ فقال: «**ما تَصنَعونَ؟**» قالوا: كُنا نَصنَعه. قال: «**لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلوا كانَ خَيْرًا**»، فترَكوه فنقصت، فذكَروا ذلك له فقال: «**إنّما أَنا بَشَرٌ إذا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذوا بِهِ، وَإذا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْء مِن رَأْيٍ فَإِنّما أَنا بَشَرٌ**»[(١)]، وفي رواية أنَس: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْياكُمْ**»[(٢)].

وأَراد مُصالحة بعض عدوِّه على ثُلُث تَمر المدينة فاستَشار الأنصار، فلما أَخبَروه برأيهم رجَع عنه، فمِثل هذا وأَشباهِه من أمور الدنيا -التي لا مَدخلَ فيها لعِلم دِيانة ولا اعتِقادها ولا تَعليمها- يَجوز عليه فيها ما ذكَرناه، إذ ليس في هذا كلِّه نَقيصة ولا محطة.

فصل

وأمَّا ما يُعتقَد في أمور أحكام البشَر الجارية على يَديه وقَضاياهم ومَعرفة المحِقِّ من المُبطِل وعلِم المُصلِح من المُفسِد، فبهَذه السبيلِ؛ لقوله عليه السلام: «**إنّما أَنا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمونَ إِلَيَّ، ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٦٣).

بَعْضٍ؛ فَأَقْضِي لَهُ عَلى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ، فمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخيهِ بشَيْءٍ فَلا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا؛ فَإِنَّما أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[(١)].

وتجري أحكامُه عليه السلام على الظاهر، وموجبِ غلبات الظنِّ بشهادة الشاهدِ ويمين الحالف، ومراعاةِ الأشبه، ومعرفةِ العِفَاص والوِكاءِ[(٢)] مع مُقتضى حِكمة الله في ذلك، فإنه تعالى لو شاءَ لأطلعَه على سرائرِ عباده ومخبآتِ ضمائرِ أمتِه، فتولى الحكمَ بينهم بمجردِ يقينِه وعلمه دون حاجةٍ إلى اعترافٍ أو بينة أو يمينٍ أو شبهة.

ولكن لما أمرَ الله أمتَه باتباعِه والاقتداءِ به في أحواله وأفعالِه وأقواله وقضاياه وسَيره، وكان هذا لو كان مما يختص بعلمِه ويُؤثره الله به لم يكن للأمة سبيلٌ إلى الاقتداء به في شيء من ذلك، ولا قامت حجةٌ بقضية من قضاياه لأحدٍ في شريعتِه لِأَنا لا نعلمُ ما أَطلِع عليه هو في تلك القضيةِ لحكمِه هو إذًا في ذلك بالمكنون من إعلام الله له بما أطلعَه عليه من سرائرهم، وهذا ما لا تعلمُه الأمةُ.

فأجرى الله تعالى أحكامَه على ظواهرهم التي يستوي فيها هو وغيرُه من البشرِ؛ ليتم اقتداء أمتِه به في تعيين قضاياه، وتنزيلِ أحكامِه، ويأتون ما أتوا من ذلك على علم ويقين من سنتِه، إذ البيان بالفعلِ أوقعُ منه بالقول، وأرفعُ لاحتمال اللفظ، وتأويلُ المتأولِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

(٢) (العِفَاص): الوعاء. (الوِكاء): الخيط الذى يشد به الوعاء.

وكان حُكمه على الظاهر أجلى في البيان وأوضحُ في وجوه الأحكام وأكثرُ فائدةً لموجبات التشاجرِ والخصام وليَقتدي بذلك كلِّه حكامُ أمته، ويستوثق بما يُؤثر عنه، وينضبط قانون شَريعته، وطيُّ ذلك عنه من علم الغيب الذي استأثَرَ به ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧] فيُعلِمه منه بما شاء ويستأثرُ بما شاء، ولا يقدحُ هذا في نبوتِه، ولا يفصم عروةً من عِصمته.

٢- فصل [في قول اللسان]

وأمَّا أقوالُه الدُّنيوية من أَخباره عن أحواله وأحوال غيره وما يَفعَله أو فعَله فقد قدَّمنا أن الخلف فيها مُمتنِع عليه في كل حال، وعلى أيِّ وَجه من عَمد أو سَهو أو صِحة أو مرَض أو رِضًا أو غضَب، وأنه مَعصومٌ منه ﷺ.

هذا فيما طريقُه الخبرُ المحضُ مما يدخله الصدقُ والكذبُ، فأما المعاريض الموهِمُ ظاهرُها خلافَ باطِنها فجائزٌ وُرودُها منه في الأمور الدُّنيوية، لا سِيَّما لقَصْد المَصلَحة كتَوريتِه عن وجهِ مَغازيه؛ لئلَّا يَأخُذ العدوُّ حِذرَه، وكما رُويَ من مُمازحَته ودُعابته لبَسط أُمَّته، وتَطييب قلوب المؤمنين من صَحابته، وتَأكيدًا في تَحبيبهم وصحبتهم ومسَرة نُفوسهم كقوله عليه السلام: «**لَأَحْمِلَنَّكَ عَلَى ابْنِ النَّاقَةِ**»[(١)]. وقد قال عليه السلام: «**إِنِّي لَأَمْزَحُ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا**»[(٢)].

فصل

فإن قيل: فما وجه حَديثِه: «**اللهُمَّ إنما مُحمَّد بشَرٌ يَغضَب كما يَغضَب البشَرُ، وإنِّي قَدِ اتَّخَذْت عِندَكَ عهدًا لن تُخلِفَنيهِ، فأَيُّما مُؤمِنٍ آذَيْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ أَوْ جَلَدْتُه فاجعَلْها له كَفَّارةً وقُربةً تُقرِّبُه بها إليك يومَ القِيامةِ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩٨)، والترمذي (١٩٩١).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٩٥) عن ابن عمر، وأخرجه الترمذي (١٩٩٠) من حديث أبي هريرة بمعناه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٦١)، ومسلم (٢٦٠١).

وفي رِواية: «**فأَيُّما أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ دَعْوةً**»[(١)]، وفي رواية: «**لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ**»[(٢)]، وفي رِواية: «**فَأَيُّما رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ أَوْ لَعَنْتُهُ أَوْ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْها لَهُ زَكاةً وصَلاةً ورَحمةً**»[(٣)]، وكيف يَصِحُّ أن يَلعَن النبي ﷺ مَن لا يَستحِق اللعن، ويَسُب مَن لا يَستحق السبَّ، ويَجلِد مَن لا يَستحِق الجَلْد، أو يَفعَل مثل ذلك عند الغضَب وهو مَعصوم من هذا كلِّه؟!

فاعلَمْ -شرَح الله صدركَ- أن قوله ﷺ: أولًا: «**لَيْسَ لَها بِأَهْلٍ**»، أي: عندك يا ربِّ في باطن أَمره، فإن حُكْمه عليه السلام على الظاهِر كما قال، وللحِكمة التي ذكَرْناها، فحَكَم عليه السلام بجَلْده، أو أدَّبه بسبِّه أو لَعْنه بما اقتَضاه عِنده حال ظاهِره، ثُم دعا له عليه الصلاة والسلام لشفَقته ﷺ على أُمَّته ورحمته لهم، ورأفته عليهم التي وصَفه الله بها، وحَذَرِه أن يَتقبَّل الله فيمَن دعا عليه دَعوته أن يَجعل دُعاءَه ولعنه وسبه له رحمة، فهو مَعنى قوله: «**لَيْسَ لَها بِأَهْلٍ**»، لا أنه عليه السلام يَحمِله الغضَب ويَستفزُّه الضجَر لِأَنْ يَفعَل مثل هذا بمَن لا يَستحقُّه من مُسلِم.

وهذا معنى صحيح، ولا يُفهَم من قوله: «**أَغْضَبُ كَما يَغْضَبُ البَشَرُ**» أَنَّ الغضَب حمَله على ما لا يَجِب فعلُه.

وقد يحتمل على أنه خرج منه ذلك بمَخرَج الإشفاق وتعليم أمته الخوفَ والحذَرَ من تَعدِّي حدود الله تعالى، وقد يُحمل ما ورَد من دُعائه هنا ومن دَعواته

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٠١).

على غير واحِد في غير مَوطِن على غير العقد والقَصْد، بل بما جرَت به عادة العرب وليس المرادُ بها الإجابةَ.

كقوله عليه السلام: «**تَرِبَتْ يَمينُكَ**»[1]، و«**لا أَشبَعَ اللهُ بَطْنَكَ**»[2]، و«**عَقْرى حَلْقَى**»[3]. وغيرها من دَعواته عليه السلام.

وقد يَكون ذلك إشفاقًا على المدعوِّ عليه وتَأنيسًا له؛ لئلَّا يَلحَقه من استِشعار الخوف والحذَر من لَعْن النبي ﷺ، وتَقبُّل دعائه ما يَحمِله على اليأس والقُنوط من رحمة الله.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٩٦)، ومسلم (١٤٤٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (١٥٦١)، ومسلم (١٢١١).

٣- فصل [في عمل الجوارح]

وأمَّا أفعاله ﷺ الدُّنيويَّة فحُكمُه فيها من تَوقِّي المعاصي والمكروهات ما قد قدَّمناه، ومن جَواز السهو والغلَط في بعضِها ما ذكَرناه، وكلُّه غيرُ قادِح في نبوَّة عليه السلام.

وكذلك يَفعل الفعل من أمور الدنيا مُساعدةً لأمته، وسياسةً وكراهية لخلافِها، وإن كان قد يرى غيرَه خيرًا منه، كما يَترك الفعلَ أبدًا، وقد يَرى فِعلَه خيرًا منه، وقد يَفعَل هذا في الأُمور الدينية مما له الخِيَرة في أحَد وَجهيه كخُروجه من المدينة لأُحُد وكان مَذهَبه التحصُّنَ بها، وتَركِه قتلَ المُنافِقين وهو على يَقين من أَمرهم مُؤالفةً لغيرهم ورِعاية للمُؤمنين من قَرابتهم، وكراهة لأن يَقول الناس: إن مُحمدًا يَقتُل أصحابه. كما جاء في الحديثِ، وتركِه بناءَ الكعبةِ على قواعدِ إبراهيمَ مُراعاةً لقلوب قريش وتعظيمهم لتَغييرها وحذَرًا من نفارِ قُلوبهم لذلك، وتحريك مُتقدِّم عداوتهم للدِّين وأهله، فقال لعائِشةَ في الحديث الصحيح: **«لَوْلا حِدثانُ قَوْمِكِ بِالكُفْرِ لأَتْمَمْتُ البَيْتَ عَلى قَواعِدِ إِبْراهيمَ»**[1].

ويَفعَل الفِعل ثُم يَترُكه لكَون غيرِه خيرًا منه كانتِقاله من أدنى مِياهِ بدر إلى أقربها للعَدوِّ من قريش، وقولِه: **«لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي ما اسْتَدْبَرْتُ ما سُقْتُ الهَدْيَ»**[2]، ويَبسُط وجهَه للعَدوِّ الكافر رجاءَ استِئلافه، ويَصبِر للجاهل ويَقول:

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٨٥)، ومسلم (١٣٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٢٩)، ومسلم (١٢١١).

«إنَّ مِنْ شِرارِ الناسِ مَنِ اتَّقاهُ الناسُ لِشَرِّه»[(١)]، ويَبذُل له الرغائب؛ ليُحبِّب إليه شريعته ودِين ربه.

فصل

فإن قيل: فما الحِكْمة في إجراء الأمراض وشِدَّتها عليه وعلى جميع الأنبياء على جميعهم السلام، وما الوجهُ فيما ابتَلاهُمُ الله به منَ البلاء وامتِحانهم بما امتُحِنوا به كأيوبَ ويَعقوب ودَنيال ويَحيى وزَكريا وعيسى وإبراهيمَ ويُوسفَ وغيرِهم صلوات الله عليهم، وهم خِيرتُه من خلقه وأَحباؤُه وأَصفياؤُه؟ فاعلَمْ -وفَّقك الله- أن أفعال الله تعالى كلَّها عَدْل، وكلماته جميعها صِدق، لا مبدِّلَ لكلماته يَبتلِي عِباده كما قال لهم: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]، و﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، و﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، و﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١]،و﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، فامتحانُه عز وجل إيَّاهم بضروب المِحَن زيادة في مَكانتهم، ورِفعة في درَجاتهم، وأسباب لاستِخراج حالات الصبر والرِّضا والشكرِ والتسليم والتوكلِ والتفويض والدعاء والتضرع منهم، وتأكيد لبصائرهم في رحمة المُمتحنين والشفَقة على المبتَلين وتَذكِرة لغيرهم، ومَوعِظة لسِواهم؛ ليتأسَّوْا في البلاءِ بهم، ويَتسَلَّوْا في المحن بما جرَى عليهم، ويَقتَدوا بهم في الصبرِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٣١)، ومسلم (٢٥٩١).

عن سعدٍ قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «**الأَنْبِياءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ، يُبْتَلى الرَّجُلُ عَلى حَسَبِ دِينِهِ فَما يَبْرَحُ البَلاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلى الأَرْضِ وما عَلَيْهِ خَطيئةٌ**»[1].

وكما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨].

وعن عبدِ الله: رأيتُ النبي ﷺ في مرَضه يُوعَك وعكًا شَديدًا، فقلتُ: إنَّكَ لتُوعَك وعكًا شديدًا. قال: «**أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَما يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْكُمْ**»، قلت: ذلِكَ أن لكَ الأجرَ مرَّتين. قال: «**أَجَلْ ذَلِكَ كَذَلِكَ**»[2].

وعن عائشةَ: «**ما مِنْ مُصيبةٍ تُصيبُ المُسْلِمَ إِلَّا يُكَفِّرُ اللهُ بِها عَنْهُ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُها**»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢).

[خاتمة المصنف]

قال القاضي أبو الفضلِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هنا انتهى القولُ بنا فيما حرَّرناه، وانتَجَزَ[١] الغرضُ الذي انْتحَيناه، واستُوفي الشرطُ الذي شرطناه مما أرجو أن في كُلِّ قسمٍ منه للمُريدِ مَقنعًا، وفي كُلِّ باب مَنهجًا إلى بُغيتِه ومَنزعًا، وقد سَفرتُ فيه عن نُكتٍ تُستغربُ وتُستبدعُ، وكرعتُ في مشاربَ من التحقيقِ لم يُورد لها قبلُ في أكثرِ التصانيف مَشرعٌ، وأودعتُه غيرَ ما فصلٍ، ودِدتُ لو وجدت من بَسطَ قبلي الكلامَ فيه أو مُقتدًى يُفيدُنيه عن كتابِه أو فِيه لاكتُفِيَ بما أرويه عما أُرَوِّيه.

وإلى الله تعالى جزيلُ الضراعةِ في المِنَّةِ بقَبول ما مَنَّه لوجهِه، والعفو عما تخلَّله من تُزيُّنٍ وتَصنُّعٍ لغيرِه، وأن يهَبَ لنا ذلك بجميلِ كرمِه وعفوه؛ لما أودعناه من شرفِ مُصطفاه وأمينِ وحيه، وأسهرنا به جُفونَنا لتتبُّع فضائلِه، وأعملنا فيه خَواطرَنا من إبرازِ خصائصِه ووسائله، ويَحميَ أعراضَنا عن ناره المُوقدةِ لحمايتنا كريمَ عِرضه، ويجعلَنا ممن لا يُذاد إذا ذِيد المُبدِّلُ عن حوضِه، ويجعلَه لنا ولمن تَهمَّم باكتتابِه واكتسابه سببًا يَصلنُا بأسبابه وذخيرةً نجدها يومَ تجد كُلُّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ مُحضرًا، نحوز بها رِضاه وجزيلَ ثوابِه، ويَخصَّنا بخصِّيصى زمرةِ نبيِّنا وجماعتِه، ويحشرَنا في الرعيل الأوَّلِ وأهل الباب الأيمنِ من أهل شفاعتِه.

ونحمدُه تعالى على ما هدى إليه من جمعِه، وألهم وفتح البصيرةَ لدَركِ حقائقِ ما أودعناه وفَهَّم، ونستعيذُه جلَّ اسمُه من دعاءٍ لا يُسمَع، وعلم لا ينفع، وعملٍ لا يُرفع، فهو الجوادُ الذي لا يَخيبُ من أمَّله، ولا يَنتصر من خذلَه، ولا يَردُّ دعوةَ القاصدين، ولا يُصلح عملَ المفسدين، وحسبُنا الله ونعمَ الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآلِه وصحبِه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

---

(١) (انتَجَزَ): تم وتحقق.

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

مختصر الشفا بتعريف حقوق المصطفى